

الأدب العالمي الناشئ

شارة الشجاعة الحمراء



ستيفن كرين

شارة الشجاعة الحمراء

تأليف
ستيفن كرين

ترجمة
نهير محمد

مراجعة
شيماء عبد الحكيم طه



The Red Badge of Courage

شارة الشجاعة الحمراء

Stephen Crane

ستيفن كرين

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبرُ الكتاب عن آراء مؤلفه.

رسم الغلاف: ورود مصطفى، تصميم الغلاف: صفاء حامد

الترقيم الدولي: ٨ ٨٣٩ ٠ ٨٣٩ ١ ٥٢٧٣ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٨٩٥.

صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص

هذا الكتاب مُرَحَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُنْصَف، الإصدار ٤.٠. جميع

حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٩	١- شَائِعَةُ قِتَالٍ
١٣	٢- مَخَاوِفُ هَنْرِي
١٥	٣- حِوَارٌ مَعَ صَدِيقٍ
١٧	٤- رِسَالَةٌ مِنْ وِيلْسُون
٢١	٥- وَبَدَأَتِ الْمَعْرَكَةُ
٢٣	٦- الطَّلَقَةُ الْأُولَى
٢٥	٧- وَأَخِيرًا الْقِتَالُ
٢٧	٨- فِرَارُ الرِّجَالِ
٣١	٩- رَجُلُ الْغَابَةِ
٣٥	١٠- صَاحِبُ الثِّيَابِ الرَّثِيَّةِ
٣٩	١١- جِيم كُونَكِلِن
٤٣	١٢- سُؤَالُ الْجُنْدِيِّ رَثِّ الثِّيَابِ
٤٧	١٣- فُرْصَةٌ ثَانِيَةٌ لِلانْضِمَامِ إِلَى الْمَعْرَكَةِ
٥١	١٤- إِصَابَةُ حَرْبٍ
٥٣	١٥- غَرِيبٌ يُقَدِّمُ الْعَوْنَ
٥٥	١٦- الْعُودَةُ إِلَى الْمُعَسْكَرِ
٥٩	١٧- شَجَارُ دَاخِلِ الْمُعَسْكَرِ
٦٣	١٨- الْخِطَابُ
٦٥	١٩- التَّحَرُّكُ

- ٦٩ - ٢٠- بَطَلَ حَقِيقِي
٧٣ - ٢١- جَوَّارُ
٧٧ - ٢٢- عَلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ مِنَ الْحَقْلِ
٨١ - ٢٣- الرَّايَةُ
٨٣ - ٢٤- انْتَصَارُ مُوقَّتْ
٨٥ - ٢٥- رَأْيِي الْجَنَرَالِ
٨٧ - ٢٦- الْجَنَرَالَات
٨٩ - ٢٧- الْهُجُومُ الثَّانِي
٩١ - ٢٨- الْجَانِبُ الْآخَرُ مِنَ السُّورِ
٩٣ - ٢٩- انْتِزَاعُ الرَّايَةِ
٩٥ - ٣٠- بِدَايَةُ جَدِيدَةٍ

مِنْ أَحْدَاثِ الْحَرْبِ الْأَهْلِيَّةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ

الفصل الأول

شَاعَةُ قِتَالٍ

اِخْتَفَى الْبَرْدُ شَيْئًا فَشَيْئًا عَنْ سَطْحِ الْأَرْضِ، وَكَشَفَ الضَّبَابُ الْمُنْقَشِعُ عَنْ جَيْشٍ يَرْتَدِي جُنُودُهُ الرِّيّ الْأَزْرَقَ وَيَسْتَرِيحُونَ فَوْقَ التَّلَالِ. عِنْدَمَا اسْتَيْقِظَ الْجُنُودُ اسْتَطَاعُوا رُؤْيَةَ الْمَزِيدِ مِنَ الطُّرُقِ الْمُوجِلَةِ وَالنَّهْرِ، ذَهَبَ جُنْدِي طَوِيلُ الْقَامَةِ لِيَغْسِلَ قَمِيصَهُ، ثُمَّ عَادَ مُهْرُولًا لِيَنْشُرَ خَبْرًا قَدْ سَمِعَهُ.

قَالَ الْجُنْدِيُّ: «سَوْفَ نَتَحَرَّكَ غَدًا، سَنَتَحَرَّكَ نَحْوَ أَعْلَى النَّهْرِ، ثُمَّ نَعْبُرُهُ وَنَلْتَفُّ مِنْ خَلْفِهِمْ.»

قَالَ جُنْدِيٌّ آخَرُ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ: «لَا أَصْدُقُ ذَلِكَ، فَقَدْ اسْتَعْدَدْتُ لِلتَّحَرُّكِ ثَمَانِي مَرَّاتٍ فِي الْأُسْبُوعَيْنِ الْمَاضِيَيْنِ، وَلَمْ نَتَحَرَّكَ بَعْدُ.»

وَبَيْنَمَا وَاصَلَ الرَّجَالُ نِقَاشَهُمْ حَوْلَ مَا إِذَا كَانُوا سَيَتَحَرَّكُونَ الْيَوْمَ التَّالِيَّ أَمْ لَا، ذَهَبَ جُنْدِيٌّ شَابٌّ يَدْعَى هَنَرِي فليمنج إِلَى كُوْجِهِ لِيَخْلُوَ إِلَى نَفْسِهِ وَيَفَكِّرَ. أَذْهَلَهُ التَّفَكُّيرُ فِي احْتِمَالِ نُشُوبِ الْقِتَالِ قَرِيبًا، وَأَنَّهُ سَيُشَارِكُ فِيهِ! سَيَكُونُ وَاحِدًا مِنْ أَهَمِّ الْأَحْدَاثِ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ.

كَانَ هَنَرِي يَحْلُمُ طَوَالَ حَيَاتِهِ بِالْمَعَارِكِ وَبِأَن يَصْبِحَ بَطَلًا، لَكِنَّهُ لَمْ يُفَكِّرْ قَطُّ أَنَّهُ سَيُشَارِكُ فِعْلِيًّا فِي الْحَرْبِ. هُنَاكَ فِي وَطَنِهِ، لَمْ يَكُنْ يُصَدِّقُ أَنَّ الْحَرْبَ حَقِيقِيَّةٌ، بَلْ ظَنَّ أَنَّ الْبَشَرَ قَدْ أَصْبَحُوا أَفْضَلَ حَالًا الْآنَ، أَوْ عَلَى الْأَقَلِّ أَكْثَرَ مِيلًا إِلَى السَّلَامِ مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ فِي الْمَاضِي، وَمُؤَكَّدٌ أَنَّهُمْ لَنْ يَخُوضُوا غِمَارَ الْحَرْبِ. لَكِنَّ حَرْبًا أَهْلِيَّةً كَانَتْ تَشْتَعِلُ الْآنَ بَيْنَ الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ، وَتِلْكَ فُرْصَتُهُ لِيُصْبِحَ بَطَلًا.

أَرَادَ هنري الانضمامَ إِلَى صُفُوفِ الْجَيْشِ مَرَاتٍ عِدَّةً، لَكِنَّ والدَتَهُ كَانَتْ تَنْهِيهِ عَنْ ذَلِكَ، كَانَتْ تَسُوقُ لَهُ مِائَةَ سَبَبٍ لِمُضَرَّةِ وَجُودِهِ فِي الْمَرْعَةِ أَكْثَرَ مِنْ مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ. وَأَخِيرًا، عِنْدَمَا ضَاقَ بِالانتِظَارِ ذُرْعًا، ذَهَبَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَالتَّحَقَّقَ بِالْجَيْشِ. وَعِنْدَمَا أَخْبَرَهَا بِذَلِكَ، قَالَتْ: «فَلَتَكُنْ مَشِيئَةُ الرَّبِّ يَا هنري»، ثُمَّ وَاصَلَتْ حَلَبَ الْبَقَرَةِ، وَأَضَافَتْ: «أَحْتَرِسْ، وَاعْتَنِ بِنَفْسِكَ. لَا تَظُنْ أَنَّ بِمَقْدُورِكَ هَزِيمَةَ جَيْشِ الْمُتَمَرِّدِينَ كُلِّهِ عَلَى الْفُورِ؛ فَلَسْتَ سِوَى رَجُلٍ وَاحِدٍ بَيْنَ كَثِيرِينَ آخَرِينَ».

طَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يَحْتَرِسَ مِنَ الْأَشْرَارِ الَّذِينَ يَسُبُّونَ أَوْ يَفْعَلُونَ أَشْيَاءَ أُخْرَى تَكُونُ سَبَبًا فِي شُعُورِهَا بِالْخِزْيِ مِنْهُ، وَأَضَافَتْ: «لَا أَذْرِي مَا الَّذِي يَجِبُ أَنْ أَخْبِرَكَ بِهِ أَيْضًا سِوَى أَلَّا تَتَخَلَّى عَنْ وَاجِبِكَ أَبَدًا بِسَبَبِي. وَإِذَا أَتَى وَقْتُ يَجِبُ أَنْ تُقْتَلَ فِيهِ مِنْ أَجْلِ فِعْلِ الصَّوَابِ، فَلَا تُفَكِّرْ فِي أَيِّ شَيْءٍ يَا هنري إِلَّا فِي فِعْلِ الصَّوَابِ».

بَلَغَتْ رُوحُهُ الْمَعْنَوِيَّةَ عَنَانَ السَّمَاءِ فِي طَرِيقِهِ إِلَى وَاشِنْتِن. كَانَتْ الْكُتَيْبَةُ كُلُّهَا تَلْقَى مُعَامَلَةً حَسَنَةً لِلْغَايَةِ أَثْنَاءَ سَفَرِهِمْ حَتَّى إِنَّهُ شَعَرَ كَمَا لَوْ كَانَ بَطَلًا حَقِيقِيًّا. بَعْدَ الْعَدِيدِ مِنَ الرِّحَلَاتِ الشَّاقَّةِ وَفتراتِ التَّوَقُّفِ الطَّوِيلَةِ، حَلَّتْ شُهُورٌ مِنَ الْحَيَاةِ الْمُضْجَرَّةِ دَاخِلَ أَحَدِ الْمَعْسَكَرَاتِ. فِي الْمَعْسَكَرِ، لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ صِرَاعٍ مَعَ الْمَوْتِ. كُلُّ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ الرَّجَالُ هُوَ مُحَاوَلَةُ الْإِحْتِفَاطِ بِدِفءِ أَجْسَامِهِمْ وَالْمُوَاطَظَةِ عَلَى النَّدْرِيبِ مِرَارًا وَتَكَرَّرًا، وَكَانَ كُلُّ مَا يُفَكِّرُ فِيهِ هنري فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ هُوَ الْمَعَارِكَ الْقَادِمَةِ.

لَمْ يَهْتَمَّ هنري كَثِيرًا بِطَبِيعَةِ الرَّجَالِ الَّذِينَ سَيَحَارِبُهُمْ؛ إِذْ كَانَتْ هُنَاكَ مُشْكِلةٌ أخطرُ، وَهِيَ أَنَّهُ أَرَادَ التَّأَكُّدَ أَنَّهُ لَنْ يَفِرَّ مِنْ مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ. لَمْ يَكُنْ فِي حَاجَةٍ إِلَى التَّفَكُّيرِ فِي ذَلِكَ الْأَمْرِ مِنْ قَبْلُ، لَكِنَّ مَعْرَكَةً سَتَقَعُ حَقًّا، وَهُوَ يُدْرِكُ أَنَّهُ رُبَّمَا يَفِرُّ مِنَ الْمَيْدَانِ. لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ نَفْسِهِ فِيمَا يَخُصُّ الْحَرْبَ.

بَعْدَ وَقْتٍ قَصِيرٍ، دَخَلَ الْجُنْدِيُّ طَوِيلُ الْقَامَةِ إِلَى كُوخِهِ وَتَبِعَهُ الْجُنْدِيُّ عَالِي الصَّوْتِ الَّذِي كَانَ قَدْ خَالَفَهُ الرَّأْيَ سَابِقًا، وَكَانَا لَا يَزَالَانِ عَلَى خِلَافِهِمَا. كَانَ الْجُنْدِيُّ طَوِيلُ الْقَامَةِ يُسَمَّى جيم كُونَكِن، وَالْجُنْدِيُّ عَالِي الصَّوْتِ يُسَمَّى ويلسون.

قَالَ جيم وَهُوَ يَدْخُلُ الْكُوخَ مُلَوِّحًا بِيَدَيْهِ: «هَذَا صَحِيحٌ، يُمَكِّنُكَ أَنْ تُصَدِّقَ ذَلِكَ أَوْ لَا، كُلُّ مَا عَلَيْكَ فِعْلُهُ هُوَ أَنْ تَجْلِسَ وَتَنْتَظِرَ. سَتَعْرِفُ عَمَّا قَرِيبٍ أَنَّنِي كُنْتُ مُحَقًّا».

قَالَ ويلسون: «حَسَنًا، إِنَّكَ تَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْعَالَمِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

رَدَّ جِيمٌ فِي حِدَّةٍ: «لَمْ أَقُلْ إِنَّنِي أَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْعَالَمِ.» وَبَدَأَ يَجْمَعُ مُعَلِّقَاتِهِ دَاخِلَ حَقِيبَةِ ظَهْرِهِ.

رَاقِبُهُمَا هُنْرِي فِي قَلْقٍ، وَفِي النَّهَائِيَةِ سَأَلَ جِيمٌ: «أَمِنَ الْمُؤَكَّدُ إِذَنْ أَنَّنَا بِصَدَدٍ إِحْدَى الْمَعَارِكِ يَا جِيم؟»

رَدَّ جِيمٌ: «بِالطَّبَعِ، هُنَاكَ مَعْرَكَةٌ، انْتَظِرْ فَقَطْ حَتَّى الْغَدِ، وَسَتَرَى وَاحِدَةً مِنْ أَكْبَرِ الْمَعَارِكِ عَلَى الْإِطْلَاقِ. انْتَظِرْ فَحَسْبُ.»

تَحَدَّثَ جِيمٌ عَنِ السَّرَايَا الْأُخْرَى وَعَنِ الْمَعَارِكِ الَّتِي سَمِعَ عَنْهَا، ثُمَّ سَأَلَهُ هُنْرِي عَمَّا قَدْ تَفَعَّلَهُ كَتِيبَتُهُمَا.

قَالَ جِيمٌ فِي هُدُوءٍ: «أَظُنُّ أَنَّهُمْ سَيَبْلُغُونَ بَلَاءً حَسَنًا مَا إِنْ يَحْتَدِمُ الْقِتَالُ. يَسْخَرُ مِنْهُمْ الْجَمِيعُ لِأَنَّهُمْ حَدِيثُو الْعَهْدِ بِالْقِتَالِ، لَكِنَّهُمْ سَيَبْلُغُونَ بَلَاءً حَسَنًا.»

سَأَلَهُ هُنْرِي: «هَلْ تَظُنُّ أَنَّ أَيًّا مِنْ الصَّبِيَّةِ سَيَلُودُ بِالْفِرَارِ؟»

قَالَ جِيمٌ: «رُبَّمَا يُقَدِّمُ قَلِيلُونَ عَلَى ذَلِكَ؛ فَتِلْكَ الْفِتْنَةُ مُوجُودَةٌ فِي كُلِّ كَتِيبَةٍ، خَاصَّةً عِنْدَمَا يُشَارِكُونَ فِي الْقِتَالِ أَوَّلَ مَرَّةٍ. لَا يُمَكِّنُكَ الْمُرَاهَنَةُ عَلَى شَيْءٍ، لَكِنْ أَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ سَيُقَاتِلُونَ أَفْضَلَ مِنَ الْبَعْضِ وَأَسْوَأَ مِنْ آخَرِينَ.»

سَأَلَهُ هُنْرِي: «هَلْ فَكَّرْتَ أَنَّكَ أَنْتَ نَفْسَكَ رُبَّمَا تَفِرُّ مِنَ الْمَعْرَكَةِ يَا جِيم؟» ثُمَّ ضَحِكَ كَمَا لَوْ كَانَ يَمْزُحُ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ أَنْ يُغْضِبَ صَدِيقَهُ.

قَالَ جِيمٌ: «حَسَنًا، فَكَّرْتُ فِي أَنَّ الْمَعْرَكَةَ قَدْ تَحْتَدِمُ كَثِيرًا، وَإِذَا فَرَّ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْفِتْنَةِ، فَسَافِرُ أَنَا الْآخَرُ، وَعِنْدَمَا أَفْعَلُ، سَأَجْرِي بِأَقْصَى قُوَّتِي. لَكِنْ إِذَا صَمَدَ الْجَمِيعِ وَقَاتَلُوا، فَسَوْفَ أَصْمُدُ وَأُقَاتِلُ. أَرَاهُنَّ عَلَى ذَلِكَ.»

شَعَرَ هُنْرِي بِالسَّعَادَةِ لِسَمَاعِهِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، فَقَدْ ظَنَّ أَنَّ جَمِيعَ الرِّجَالِ الْآخَرِينَ مِمَّنْ لَا يَمْتَلِكُونَ الْخَبْرَةَ يَتَّقُونَ بَأْنَفْسِهِمْ تَمَامَ الثَّقَةِ، أَمَّا الْآنَ وَبَعْدَ أَنْ عَرَفَ الْحَقِيقَةَ،

شَعَرَ بِأَنَّهُ فِي حَالٍ أَفْضَلَ قَلِيلًا.

الفصل الثاني

مَخَافُ هِنْرِى

فِى الصَّبَاحِ التَّالِى، اكْتَشَفَ هِنْرِى أَنَّ جِىمَ كَانَ مُخْطِئًا؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ قِتَالٌ فِى هَذَا الْيَوْمِ. سَخِرَ كَثِيرٌ مِنَ الرِّجَالِ الْآخَرِينَ مِنْ جِىمٍ، حَتَّى إِنَّهُ دَخَلَ فِى عِرَاكِ بِالْأَيْدِى مَعَ رَجُلٍ مِنْ «تَشَاتْفِيلِد كورنرز». تَشَاجَرُ وَيَلْسُون — الْجُنْدِيُّ عَالِى الصَّوْتِ — هُوَ الْآخَرُ، وَكَانَ عَلَى الْمَلَاذِمِ فَضْ ذَلِكَ الشُّجَارِ. فِى غُضُونِ ذَلِكَ، كَانَ هِنْرِى لَا يَزَالُ غَيْرَ وَاثِقٍ مِنْ نَفْسِهِ.

ظَلَّ هِنْرِى أَيَّامًا يُفَكِّرُ فِى هَذَا الْأَمْرِ. كَانَ لَا يَزَالُ قَلَقًا مِنْ أَنَّهُ سَيَفِرُّ مَعَ أَوَّلِ بَادِرَةٍ لِلْقِتَالِ. وَأَخِيرًا قَرَّرَ أَنَّ الطَّرِيقَةَ الْوَحِيدَةَ لِإِثْبَاتِ قُدْرَاتِهِ هِيَ دُخُولُ سَاحَةِ الْوَعَى. عَلَيْهِ أَنْ يَنْتَظِرَ لِيَرَى هَلْ سَيُحَارِبُ حَقًّا أَمْ لَا؛ لِذَلِكَ، ظَلَّ يَنْتَظِرُ الْفُرْصَةَ، وَحَاوَلَ أَنْ يُقَارِنَ نَفْسَهُ بِرِفَاقِهِ.

شَعَرَ هِنْرِى أَنَّ حَالَهُ أَفْضَلُ بِكَثِيرٍ عِنْدَمَا نَظَرَ إِلَى جِىمِ الَّذِى لَمْ تَبْدُ عَلَيْهِ أَيُّ أَمَارَةٍ لِلْقَلَقِ، وَالَّذِى بَدَأَ وَاثِقًا مِنْ نَفْسِهِ، وَكَأَنَّهُ لَا يُوْجَدُ شَيْءٌ يَفُوقُ قُدْرَاتِهِ. عِنْدَمَا تَأَمَّلَ هِنْرِى حَالَ الْجُنُودِ الْآخَرِينَ، كَانَ يَظُنُّ أحيانًا أَنَّهُمْ جَمِيعًا أَبْطَالٌ. مُؤَكَّدٌ أَنَّهُمْ جَمِيعًا أَفْضَلُ مِمَّا قَدْ يَأْمَلُ هُوَ يَوْمًا أَنْ يَكُونَ. لَكِنْ أحيانًا أُخْرَى كَانَ يَجِدُهُمْ قَلِقِينَ وَمُتَرَدِّدِينَ مِثْلَهُ تَمَامًا. فِى صَبَاحِ أَحَدِ الْأَيَّامِ، كَانَ هِنْرِى يَقِفُ بِصُحْبَةِ أَفْرَادٍ كَثِيرِينَ، وَكَانَ الْجَمِيعُ يَتَهَاَمَسُونَ وَيُخْبِرُ أَحَدُهُمُ الْآخَرَ مُجَدِّدًا بِالشَّائِعَاتِ الْقَدِيمَةِ. كَانُوا عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّ الْقِتَالَ أَصْبَحَ وَشِيقًا. وَفِى الظُّلْمَةِ الَّتِى تَسْبِقُ طُلُوعَ النَّهَارِ، كَانَ لِبَاسُهُمُ الْعَسْكَرِيُّ يَتَوَهَّجُ بِاللَّوْنِ الْأَزْرَقِ الدَّاكِنِ. كَانَتِ الشَّمْسُ عَلَى وَشِكِ السُّطُوعِ حِينَمَا لَاحَ الْبُنْيَانُ الضَّخْمُ لِلْعَقِيدِ عَلَى جَوَادِهِ. وَقَفَتِ الْكُتَيْبَةُ وَقْتًا بَدَأَ طَوِيلًا، حَتَّى أَخَذَ صَبْرُ هِنْرِى يَنْفُذُ.

أخيراً، اتَّجَهَ نَحْوَهُمْ رَجُلٌ آخَرُ عَلَى صَهْوَةٍ جَوَادِهِ، حَاوَلَ الْجُنُودُ الْقَرِيبُونَ مِنْهُ أَنْ يَسْتَرْقُوا السَّمْعَ لِحَدِيثِهِ مَعَ الْعَقِيدِ. وَبَعْدَ بَضْعِ دَقَائِقَ، اسْتَدَارَ الرَّجُلُ الثَّانِي بِجَوَادِهِ، وَابْتَعَدَ. وَفِي اللَّحْظَةِ التَّالِيَةِ، بَدَأَ الْجُنُودُ فِي السَّيْرِ وَسَطَ الظَّلَامِ. بَدَتْ الْكُتَيْبَةُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَشْبَهَ بِوَحْشٍ مُتَحَرِّكِ ذِي أَقْدَامٍ عَدِيدَةٍ. كَانَ الْهَوَاءُ بَارِداً وَمُعَبَّئاً بِالْنَدَى، وَكَانَ الْعُشْبُ الْمُبْلَلُ بِالْنَدَى يُصْدِرُ حَفِيفاً كَالْحَرِيرِ كُلَّمَا وَطِئَهُ الْجُنُودُ.

أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ، وَرَأَى هِنْرِي رَتَلَيْنِ طَوِيلَيْنِ أَسْوَدَيْنِ مُكْتَظَّيْنِ بِالْجُنُودِ. اخْتَفَى الرَّتَلَانِ فَوْقَ تَلٍّ أَمَامَهُمْ، وَتَوَارَيَا عَنِ الْأَنْظَارِ فِي الْغَابَاتِ خَلْفَهُمْ. كَانَا صَفَيْنِ مِنَ الرِّجَالِ يَسِيرُونَ إِلَى أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ، لَكِنَّهُمَا بَدَوَا كُنُعْبَانَيْنِ يَرْحَفَانِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ.

لَمْ يَكُنِ النَّهْرُ ظَاهِراً فِي الرُّؤْيَا، وَوَاصَلَ الْجُنُودُ نِزَاعَهُمْ حَوْلَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ الْخُطْطُ. لَمْ يُشَارِكْ هِنْرِي فِي تِلْكَ النِّزَاعَاتِ، بَلْ ظَلَّ يَسْأَلُ نَفْسَهُ أَتْنَاءَ سَيْرِهِ هَلْ سَيَفِرُّ مِنْ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ أَمْ لَا. لَمْ يَسْتَطِعِ التَّوَقُّفَ عَنِ التَّفَكُّيرِ فِي الْأَمْرِ. كَانَ يَنْظُرُ إِلَى الْأَمَامِ مُتَوَقِّعاً فِي الْغَالِبِ أَنْ يَسْمَعَ صَوْتَ إِطْلَاقِ النَّيْرَانِ.

بَدَأَ الرِّجَالُ الْآخَرُونَ فِي الْمُرَاحِ وَالضَّحِكِ، بَلْ إِنَّ بَعْضَهُمْ أَخَذَ يُغْنِي، وَشَعَرَ هِنْرِي أَنَّهُ فِي عَزَلَةٍ عَنِ الْآخَرِينَ. عِنْدَ حُلُولِ الظَّلَامِ، انْقَسَمَ رَتَلُ الْجُنُودِ إِلَى وَحَدَاتٍ، وَدَخَلَتْ كُلُّ وَحْدَةٍ إِلَى الْحُقُولِ كَيْ تَخِيَمَ. بَدَتْ الْخِيَامُ وَكَأَنَّهَا نَبَاتَاتٌ غَرِيبَةٌ، وَرَصَعَتْ نِيرَانُ الْمُخِيَمِ صَفْحَةَ اللَّيْلِ كَأَنَّهَا زُهُورٌ حُمْرَاءُ.

الفصل الثالث

حِوَارٌ مَعَ صَدِيقٍ

سَارَ هنري بِمُفْرِدِهِ فِي الظَّلَامِ. اسْتَلْقَى فَوْقَ الْحَشَائِشِ وَشَعَرَ بِالْأَسَى عَلَى حَالِهِ. كَانَ يَتَمَنَّى الْعُودَةَ إِلَى مَنْزِلِهِ مَرَّةً أُخْرَى، وَالْقِيَامَ بِجَوْلَاتِهِ مِنَ الْبَيْتِ إِلَى الْحَظِيرَةِ، وَمِنَ الْحَظِيرَةِ إِلَى الْحَقْلِ، وَمِنَ الْحَقْلِ إِلَى الْحَظِيرَةِ، وَمِنَ الْحَظِيرَةِ إِلَى الْبَيْتِ. تَذَكَّرَ هنري كَمْ كَانَ يَصِيحُ فِي الْبَقَرَةِ وَرِفَاقِهَا، لَكِنَّهُ الْآنَ يُفَكِّرُ فِيهَا فِي سَعَادَةٍ. أَخْبَرَ نَفْسَهُ أَنَّهُ لَمْ يُخْلَقْ لِيَكُونَ جُنْدِيًّا، وَفَكَّرَ كَمْ هُوَ شَدِيدُ الْإِخْتِلَافِ عَنِ الرِّجَالِ الْآخَرِينَ فِي فِرَقَتِهِ.

سَمِعَ هنري حَفِيفَ الْحَشَائِشِ، وَنَظَرَ حَوْلَهُ فَرَأَى الْجُنْدِيَّ ذَا الصَّوْتِ الْعَالِي، فَنَادَاهُ:

«ويلسون!»

قَالَ ويلسون: «مَرْحَبًا يَا هنري، أَهَذَا أَنْتَ؟ مَا الَّذِي تَفْعَلُهُ هُنَا؟»

قَالَ هنري: «أَفَكِّرُ.»

بَدَأَ ويلسون فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْمَعْرَكَةِ الَّتِي يَظُنُّ أَنَّهُمْ سَيُشَارِكُونَ فِيهَا قَرِيبًا.

قَالَ ويلسون: «سَنَنَالُ مِنْهُمْ الْآنَ! أَحِيرًا سَنَنَالُ مِنْهُمْ.»

قَالَ هنري: «نَعَمْ، يَقُولُ جيم كُونَكُنْ إِنَّنَا سَنَخُوضُ الْكَثِيرَ مِنَ الْقِتَالِ.»

قَالَ ويلسون: «أَظُنُّهُ عَلَى حَقِّ هَذِهِ الْمَرَّةِ؛ فَأَمَامَنَا مَعْرَكَةٌ كَبِيرَةٌ، هَذَا أَمْرٌ مُؤَكَّدٌ.»

قَالَ هنري: «أَظُنُّكَ سَتُبْلِي بِلَاءً حَسَنًا.»

رَدَّ ويلسون: «لَا أَعْلَمُ، أَعْتَقِدُ أَنَّي سَأَفْعَلُ مِثْلَمَا يَفْعَلُ الْبَاقُونَ، سَوْفَ أَبْذُلُ قِصَارَى

جُهْدِي.»

سَأَلَهُ هنري: «كَيْفَ تَعْرِفُ أَنَّكَ لَنْ تَفِرَّ حِينَمَا يَحِينُ وَقْتُ الْقِتَالِ؟»

قَالَ ويلسون: «أَفِرُّ؟!» ثُمَّ ضَحِكَ، وَأَضَافَ: «أَفِرُّ؟! بِالطَّبَعِ لَنْ أَفِرَّ!»

قال هنري: «حَسَنًا، ظَنَّ الْكَثِيرُ مِنَ الرِّجَالِ أَنَّهُمْ سَيُحَقِّقُونَ انْتِصَارَاتٍ عَظِيمَةً قَبْلَ الْمَعْرَكَةِ، لَكِنْ عِنْدَمَا حَانَ الْوَقْتُ، فَرُّوا.»

قال ويلسون: «هَذَا صَحِيحٌ عَلَى مَا أَعْتَقِدُ، لَكِنِّي لَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ، وَمَنْ يُرَاهِنُ عَلَى فِرَارِي فَسَوْفَ يَخْسِرُ.»

قال هنري: «سُحْقًا! هَلْ أَنْتَ أَشْجَعُ رَجُلٍ فِي الْعَالَمِ؟»

ردَّ ويلسون: «لَا، لَسْتُ كَذَلِكَ، وَلَمْ أَقُلْ إِنِّي الْأَشْجَعُ. قُلْتُ إِنِّي سَأَخْذُ نَصِيبِي مِنَ الْقِتَالِ. وَمَنْ تَكُونُ أَنْتَ لِتُخَاطِبَنِي هَكَذَا عَلَى أَيَّْةٍ حَالٍ؟»

حدَّق ويلسون فِي وَجْهِ هِنري لَحْظَةً ثُمَّ سَارَ بَعِيدًا، فَصَاحَ هِنري: «لَا دَاعِيَ لَأَنْ يُغَضِبَكَ الْأَمْرُ!»

شَعَرَ هِنري بِالْوَحْدَةِ وَالتَّعَاسَةِ. بَدَأَ أَنَّهُ لَا أَحَدَ غَيْرَهُ يَشْغُلُ بَالَهُ هَلْ سَيَفِرُّ مِنْ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ أَمْ لَا. شَعَرَ أَنَّهُ غَرِيبٌ عَنْهُمْ، فَعَادَ إِلَى خَيْمَتِهِ وَاسْتَلْقَى عَلَى أَحَدِ الْأَعْطِيَةِ بِجَوَارِ جِيمِ الَّذِي كَانَ يَغْطِي فِي نَوْمِهِ. فِي الظَّلَامِ، تَرَاءَى لِهِنري فِي خَيَالِهِ الْخَوْفُ الَّذِي سَيَجْعَلُهُ يَرْكُضُ بَعِيدًا، بَيْنَمَا يَقِفُ الْآخَرُونَ فِي أَمَاكِنِهِمْ يُقَاتِلُونَ. كَانَ يَعْرِفُ أَنَّهُ لَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى التَّعَامُلِ مَعَ هَذَا الْوَحْشِ، ظَلَّ يَحْدِّقُ فِي أَنْعَاسِ النَّارِ عَلَى جِدَارِ خَيْمَتِهِ حَتَّى أَرْهَقَهُ الْقَلَقُ، فَغَطَّى فِي النَّوْمِ.

الفصل الرابع

رِسَالَةٌ مِنْ وِيلْسُون

حَلَّتْ لَيْلَةٌ جَدِيدَةٌ، وَعَبَّرَ رَتَلَا الْجُنُودِ اثْنَيْنِ مِنَ الْكُبَارِيِّ. كَانَ هُنْرِي وَاثِقًا أَنَّهُمْ سَيَتَعَرَّضُونَ لِلْمُوَاجَهَةِ مِنَ الْكُھُوفِ فِي الْغَابَاتِ فِي أَيِّ لَحْظَةٍ. لَمْ يُزْعِجْهُمْ أَحَدٌ فِي مَكَانٍ تَخِيْمِهِمْ، وَنَامَ الْجُنُودُ نَوْمَ الرِّجَالِ الْمُرهَقِينَ. اسْتَيْقَظُوا فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ، وَسَارُوا فِي طَرِيقٍ ضَيِّقٍ يُؤَدِّي إِلَى قَلْبِ الْغَابَةِ.

بَدَأَ الرِّجَالُ يَعْذُونَ الْأَمِّيَالَ الَّتِي قَطَعُوهَا، كَثِيرُونَ مِنْهُمْ أَلْقَوْا حَقَائِبَهُمْ بَعِيدًا، وَبَعْدَ قَلِيلٍ أَصْبَحَ عَدَدٌ قَلِيلٌ مِنْهُمْ لَا يَحْمِلُ سِوَى الْمَلَابِيسِ الصَّرُورِيَّةِ، وَالْأَعْطِيَةِ، وَقَرَبِ الْمِيَاهِ، وَالْبَنَادِقِ، وَالذَّخِيرَةِ.

قَالَ جِيم لِهُنْرِي: «يُمْكِنُكَ الْآنَ أَنْ تَأْكُلَ وَتُصَوِّبَ، هَذَا كُلُّ مَا عَلَيْكَ فِعْلُهُ». وَاصَلَ الْجُنُودُ سَبِيلَهُمْ بِضَعَةِ أَيَّامٍ، وَبَدَأَ هُنْرِي يُفَكِّرُ فِي الْأَمْرِ وَكَأَنَّهُ مَسِيرَةٌ لِلرِّجَالِ فِي زِيَّهِمُ الْعَسْكَرِيِّ الْأَزْرَقِ يُظْهِرُونَ فِيهَا كِفَاءَتَهُمْ فِي السَّيْرِ لَيْسَ أَكْثَرَ.

غَيْرَ أَنَّهُ فِي فَجْرِ أَحَدِ الْأَيَّامِ، رَكَلَ جِيم هُنْرِي الَّذِي — قَبْلَ أَنْ يَسْتَيْقِظَ تَمَامًا — وَجَدَ نَفْسَهُ يَجْرِي عَلَى الطَّرِيقِ وَسَطَ رِجَالٍ يَلْهَثُونَ مِنَ الْجَرِيِّ سَرِيعًا. كَانَ يَأْتِيهِمْ مِنْ بَعِيدٍ صَوْتُ دَوِيِّ الْأَعْيِرَةِ النَّارِيَّةِ، وَكَانُوا يَرْكُضُونَ بِاتِّجَاهِ هَذَا الصَّوْتِ مُبَاشَرَةً.

شَعَرَ هُنْرِي بِالِارْتِبَاكِ، وَحَاوَلَ أَنْ يُفَكِّرَ أَثْنَاءَ رَكْضِهِ مَعَ رِفَاقِهِ، لَكِنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ خَلْفَهُ سَيَدْهُسُونَهُ إِذَا سَقَطَ أَرْضًا؛ فَعَلِيهِ أَنْ يُرَكِّزَ حَتَّى لَا يَتَعَثَّرَ. شَعَرَ وَكَأَنَّهُ يَدْفَعُ إِلَى الْأَمَامِ بِفِعْلِ حَشْدٍ مِنَ الرِّعَاعِ.

انْضَمَّتِ الْوَحَدَاتُ الْأُخْرَى إِلَى الْمَشْهَدِ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَحِينَهَا عَلِمَ هُنْرِي أَنَّ وَقْتَهُ قَدْ حَانَ؛ إِنَّهُ عَلَى وَشَكِّ الْإِحْتِبَارِ. نَظَرَ حَوْلَهُ، وَرَأَى أَنَّ فِرَارَهُ مِنَ الْوَحْدَةِ مُسْتَحِيلٌ. كَانُوا

يُحِيطُونَ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَتَّى شَعَرَ وَكَأَنَّهُ بِدَاخِلِ صُنْدُوقٍ مُتَحَرِّكِ. أَدْرَكَ هنري أَنَّهُ لَمْ يَرْعَبْ قَطُّ فِي الانْضِمَامِ إِلَى الْحَرْبِ، وَشَعَرَ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَخْتَرْ الانْضِمَامَ إِلَى الْجَيْشِ. لَقَدْ اسْتَدْرَجَتْهُ الْحُكُومَةُ الَّتِي جَعَلَتْهُ يَشْعُرُ أَنَّ هَذَا وَاجِبُهُ، وَالْآنَ تَأْخُذُهُ إِلَى نَهَايَةِ حَيَاتِهِ. شَعَرَ بِالْغَضَبِ لِأَنَّهُ هُنَا، وَفَقَدْ ثَقَّتْهُ فِي الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ مَسْئُولِيَّةَ الْجَيْشِ.

عِنْدَمَا وَصَلَ الرَّجَالُ إِلَى الْخَلَاءِ، تَوَقَّعَ هنري أَنْ يَرَى قِتَالًا، لَكِنَّهُ رَأَى مَجْمُوعَاتٍ صَغِيرَةً مِنَ الرَّجَالِ يَرْكُضُونَ ذَهَابًا وَإِيَابًا. كَانُوا يُطْلِقُونَ النَّارَ فِي الْأَفْقِ. رَفَرَفَ أَحَدُ الْأَعْلَامِ، وَمَرَّتِ الْوَحْدَةُ بِجَنَّةِ رَجُلٍ رَفَعَتِ الرِّيحُ لِحَيْتَهُ وَكَأَنَّ يَدًا كَانَتْ تَدَاعِبُهَا. امْتَلَأَتْ رَأْسُ هنري بِأَفْكَارٍ غَرِيبَةٍ بَيْنَمَا وَاصَلَ السَّيْرَ. ظَنَّ أَنَّ الْأَرْضَ تُهَدِّدُهُ، وَأَنَّ الْعَدُوَّ سِيْهَاجِمُهُ فِي أَيِّ لَحْظَةٍ وَيَقْتُلُهُ هُوَ وَأَصْدِقَاءَهُ. أَرَادَ أَنْ يُحَذِّرَهُمْ مِنْ أَنَّ الْجِنْرَالَاتِ لَيْسُوا عَلَى وَعْيٍ بِمَا يَفْعَلُونَ، لَكِنَّهُ عَلِمَ أَنَّ أَحَدًا لَنْ يَسْتَمَعَ إِلَيْهِ، وَعَلَى الْأَرْجَحِ سَيَضْحَكُونَ مِنْهُ.

عِنْدَمَا تَوَقَّفُوا وَاسْتَلْقَوْا عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى يَكُونُوا فِي مَأْمَنٍ، بَدَأَ الْعَدِيدُ مِنْ رِجَالِ الْوَحْدَةِ بِنَاءَ تِلَالٍ صَغِيرَةٍ أَمَامَهُمْ. اسْتَحْذَمُوا الْأَحْجَارَ، وَالْعِصْيَ، وَالتُّرَابَ، وَأَيَّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ التَّصَدِّي لِلرِّصَاصِ. أَخَذَ الرَّجَالُ يَتَنَاقَشُونَ: هَلْ فَعَلَ ذَلِكَ شَيْءٌ مُشْرِفٌ أَمْ أَنَّهُ أَكْرَمُ لَهُمْ أَنْ يَقِفُوا وَيُوَاجِهُوا الْعَدُوَّ دُونَ أَيِّ حِمَايَةٍ؟ صَدَرَ الْأَمْرُ لِلْوَحْدَةِ بِالتَّحَرُّكِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ مِمَّا جَعَلَ صَبْرَ هنري يَنْفَدُ، وَتَسَاءَلَ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ لِمَاذَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ؟!

أَكَلَ جِيم الْقَلِيلِ، وَأَجَابَ: «حَسَنًا، أَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَيْنَا مُوَاصَلَةُ السَّيْرِ كَيْ نَمْنَعَ الْعَدُوَّ مِنَ الْإِقْتِرَابِ كَثِيرًا أَوْ شَيْئًا كَهَذَا.»

فِي الظَّهِيرَةِ، تَحَرَّكَتِ الْوَحْدَةُ فَوْقَ نَفْسِ الْأَرْضِ الَّتِي سَارُوا فَوْقَهَا فِي الصَّبَاحِ. بَدَتْ الْأَرْضُ مَأْلُوفَةً لهنري أَكْثَرَ؛ فَلَمْ تَكُنْ تُهَدِّدُهُ بَعْدَ الْآنَ، لَكِنْ عِنْدَمَا يَمْشُونَ عَبْرَ أَيِّ مَنَاطِقَةٍ جَدِيدَةٍ، تَعَاوَدَ هنري مَسَاعِرَ الْقَلْقِ الْقَدِيمَةِ النَّابِعَةِ مِنَ الْبَلَاهَةِ وَالْخَوْفِ. بَعْدَ بَرْهَةٍ، قَرَّرَ هنري أَنَّهُ لَنْ يَأْبَهُ لِتِلْكَ الْبَلَاهَةِ. تَسَاءَلَ كَيْفَ سَيَكُونُ الْوَضْعُ إِذَا مَا أُصِيبَ فِي مَعْرَكَتِهِ الْأُولَى.

بَعْدَ قَلِيلٍ سَمِعَ دَوِيَّ الْأَعْيَةِ النَّارِيَّةِ أَمَامَهُ، وَرَأَى الْجُنُودَ يَرْكُضُونَ، تَتْبَعُهُمْ أَصْوَاتُ إِطْلَاقِ النَّيْرَانِ. نَسِيَ هنري أَمْرَ احْتِمَالِ إِصَابَتِهِ بِطُلُقِ نَارِيٍّ، وَشَاهَدَ الْمَعْرَكَةَ فِي ذُهُولٍ. فَجْأَةً! شَعَرَ بِبِدِّ ثَقِيلَةٍ فَوْقَ كَتِفِهِ، وَعِنْدَمَا اسْتَدَارَ رَأَى وَيْلَسُونَ، الْجُنْدِيَّ عَالِي الصَّوْتِ.

قَالَ وِيلِسُون: «إِنَّهَا مَعْرَكَتِي الْأُولَى وَالْأَخِيرَةُ يَا فَتَى». كَانَ وِيلِسُون شَاحِبًا لِلْغَايَةِ وَشَفَتَاهُ تَزْتَجِفَانِ.

غَمَّعَ هِنْرِي فِي ذُھُولِ بَالِغٍ: «مَا الْأَمْرُ؟!»

أَجَابَ وِيلِسُون: «قُلْتُ: إِنَّهَا مَعْرَكَتِي الْأُولَى وَالْأَخِيرَةُ. شَيْءٌ مَا يُخْبِرُنِي ...»

سَأَلَ هِنْرِي: «مَاذَا؟!»

قَالَ وِيلِسُون: «أُرِيدُكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذَا إِلَى أَهْلِي». وَأَنْهَى كَلَامَهُ بِتَنْهِيدَةٍ عَبَّرَتْ عَنْ أَسْفِهِ عَلَى حَالِهِ، وَسَلَّمَ هِنْرِي مَظْرُوفًا صَغِيرًا.

قَالَ هِنْرِي: «مَا الَّذِي ...» لَكِنَّ وِيلِسُون رَمَقَهُ بِنَظَرَةٍ كَأَنَّهَا آتِيَةٌ مِنْ أَعْمَاقِ الْقُبُورِ، وَرَفَعَ يَدَهُ الْوَاهِنَةَ، ثُمَّ اسْتَدَارَ مُبْتَغِدًا.

الفصل الخامس

وَبَدَأَتِ الْمَعْرَكَةُ

تَوَقَّفَ الرَّجَالُ عَلَى حَافَّةِ إِحْدَى الْحَدَائِقِ، حَيْثُ جَثَمُوا عَلَى الْأَرْضِ بَيْنَ الْأَشْجَارِ يُصَوِّبُونَ أَسْلِحَتَهُمْ نَحْوَ الْحُقُولِ، وَيَحَاوِلُونَ النَّظَرَ فِيمَا وَرَاءَ الضَّبَابِ؛ حَيْثُ اسْتَطَاعُوا رُؤْيَةَ رِجَالِ آخَرِينَ يَرْكُضُونَ وَبَعْضُهُمْ يَصِيحُ وَيَلُوحُ. نَظَرَ رِجَالُ وَحْدَةِ هِنري وَاسْتَمَعُوا فِي حَرِصٍ، وَظَلُّوا مَشْغُولِينَ بِالْحَدِيثِ عَنِ الشَّائِعَاتِ الَّتِي سَمِعُوهَا.

قَالَ أَحَدُ الرَّجَالِ: «قَابَلْتُ أَحَدَ الْفَتَيَانِ مِنْ وَلَايَةِ «مين»، وَقَالَ إِنَّ فِرْقَتَهُ حَارَبَتْ جَيْشَ الْمُتَمَرِّدِينَ كُلَّهُ لِمُدَّةِ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ وَقَتَلَتْ نَحْوَ خَمْسَةِ آلَافٍ مِنْهُمْ. قَالَ إِنَّ مَعْرَكَةً أُخْرَى كَهَذِهِ سَوْفَ تُنْهِي الْحَرْبَ تَمَامًا.»

تَزَايَدَ الصَّخَبُ أَمَامَهُمْ، وَتَجَمَّدَ هِنري وَرَفَاقُهُ صَمْتًا فِي أَمَاكِنِهِمْ. بِإِمْكَانِهِمْ رُؤْيَةَ الْعَلَمِ يُرْفَرِفُ غَضَبًا وَسَطَ الدُّخَانِ، وَبِالْقُرْبِ مِنْهُ صُورٌ ضَبَابِيَّةٌ لِلْوَحَدَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ. لَازَتْ مَجْمُوعَةٌ مُرْتَبِكَةٌ مِنَ الرَّجَالِ بِالْفِرَارِ عَبْرَ الْحُقُولِ.

مَرَّتْ قَذِيفَةٌ مُدَوِّيَّةٌ مِثْلَ الْعَاصِفَةِ فَوْقَ رُءُوسِ جُنُودِ الْإِحْتِيَاطِ، وَهَبَطَتْ فَوْقَ أَرْضِ الْبُسْتَانِ، ثُمَّ انْفَجَرَتْ لِتُبْعِثَ التُّرَابَ الْبُنِّيَّ وَأَوْرَاقَ الصَّنَوْبَرِ فِي كُلِّ مَكَانٍ. وَبَدَأَ صَفِيرُ الرِّصَاصَاتِ بَيْنَ الْأَغْصَانِ وَانْطِلَاقُهَا بِسُرْعَةٍ نَحْوَ الْأَشْجَارِ. وَتَدَلَّتِ الْأَغْصَانُ وَالْأَوْرَاقُ إِلَى الْأَسْفَلِ، وَكَانَ آلَافُ الْفُتُوسِ الْخَفِيَّةِ تَنْزِلُ عَلَيْهَا؛ فَاضْطُرَّ كَثِيرٌ مِنَ الرَّجَالِ إِلَى تَغْطِيَةِ رُءُوسِهِمْ.

أُصِيبَ مُلَازِمُ كَتِيبَةِ هَنَرِي بِطُلُقَةٍ فِي يَدِهِ، وَأَخَذَ يَكِيلُ اللَّعَنَاتِ حَتَّى سَرَتْ صَحِغَّةُ
مَشُوبَةٍ بِالتَّوْتُرِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْكَتِيبَةِ. ضَغَطَ الْمُلَازِمُ عَلَى جُرْحِهِ كَيْ لَا تَتَسَاقَطَ الدَّمَاءُ فَوْقَ
سِرْوَالِهِ، ثُمَّ رَبَطَ قَائِدَ الْفِرْقَةِ مِنْدِيلًا حَوْلَ الْجُرْحِ.

رَفَرَفَتْ رَايَةُ الْمَعْرَكَةِ بَعِيدًا فِي جُنُونٍ، وَكَأَنَّهَا تُكَافِحُ لِتَحْرِيرِ نَفْسِهَا. اِمْتَلَأَ الدُّخَانُ
الدَّائِرُ فِي الْهَوَاءِ بِوَمَضَاتٍ أَفْقِيَّةٍ، وَظَهَرَ عِبْرَهُ رِجَالٌ يَهْرُبُونَ بِسُرْعَةٍ مِنَ الْقِتَالِ، ثُمَّ اِزْدَادَ
عَدَدُهُمْ حَتَّى بَدَأَ وَكَأَنَّ الْكَتِيبَةَ كُلَّهَا تَلُوذُ بِالْفِرَارِ. وَانْخَفَضَ الْعَلَمُ وَكَأَنَّهُ يُحْتَضِرُ، وَبَدَتْ
حَرَكَتُهُ وَهُوَ يُنَكِّسُ إِشَارَةً لِلْيَأْسِ.

شَعَرَ هَنَرِي بِالذُّعْرِ مِنَ النُّظَرَاتِ الَّتِي عَلَتْ وَجْوهَ الْفَارِّينَ، شَعَرَ أَنَّهُ لَا شَيْءَ فِي
الْعَالَمِ قَدْ يَمْنَعُهُ مِنَ الْفِرَارِ إِذَا لَاحَتْ لَهُ الْفُرْصَةُ، لَكِنْ كَانَ عَلَى الرَّجَالِ فِي وَحْدَتِهِ التَّشَبُّثُ
بِمَوَاقِعِهِمْ. وَقَفُوا جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ يَرْتَعِشُونَ وَيَزْدَادُونَ شُحُوبًا.

جَالَتْ بِخَاطِرِ هَنَرِي فِكْرَةٌ وَجِيدَةٌ فِي خِصْمِ تِلْكَ الْفَوْضَى؛ فَالْوَحْشُ الَّذِي تَسَبَّبَ فِي
فِرَارِ الْوَحَدَاتِ الْأُخْرَى لَمْ يَظْهَرْ بَعْدُ. وَقَرَّرَ هَنَرِي أَنْ يَتَرَقَّبَهُ، ظَنَّ أَنَّهُ لَوْ اسْتَطَاعَ فَعَلَ
ذَلِكَ، سَيَكُونُ قَائِدًا عَلَى الْفِرَارِ أَسْرَعَ مِنْ أَيِّ شَخْصٍ آخَرَ.

الفصل السادس

الطَّلَقَةُ الْأُولَى

كَانَتْ هُنَاكَ لَحَظَاتٌ انْتِظَارٍ كَثِيرَةٌ، وَتَذَكَّرَ هِنري الشَّارِعَ فِي مَدِينَتِهِ عِنْدَمَا كَانَ الْجَمِيعُ يَنْتَظِرُونَ قُدُومَ مَوَكِبِ السَّيْرِكِ فِي الرَّبِيعِ.

صَاحَ أَحَدُهُمْ فَجَاءَةً: «هَآ قَدْ أَتَوْآ!»

سَرَتْ غَمْغَمَاتٌ وَهَمَّهَمَاتٌ بَيْنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ سَحَبُوا صَنَادِيقَ الرِّصَاصِ بِالْقُرْبِ مِنْهُمْ، وَغَيَّرُوا مَوَاقِعَهُمْ فِي حَدَرٍ بَالِغٍ. «هَآ قَدْ أَتَوْآ! هَآ قَدْ أَتَوْآ!» وَتَحَرَّكَتْ أَرْنُدُ الْبِنَادِقِ.

عَبَرَ الْحَقْلَ الْمُغَطَّى بِالدُّخَانِ ظَهَرَ سِرْبٌ مِنَ الرِّجَالِ فِي زِيَّهِمُ الرَّمَادِيِّ، يَصِيحُونَ بِأَصْوَاتٍ مُرْتَفِعَةٍ صَاخِبَةٍ. عِنْدَمَا رَأَاهُمْ هِنري ارْتَبَكَ فَجَاءَةً مِنْ فِكْرَةٍ أَنَّ بُنْدُقِيَّتَهُ رُبَّمَا لَا تَكُونُ مَحْشُوءَةً بِالرِّصَاصِ. حَاوَلَ أَنْ يَتَذَكَّرَ مَتَى حَسَّاهَا، لَكِنَّهُ كَانَ مُرْتَبِكًا لِلْغَايَةِ.

سَحَبَ جِنْرَالٌ لَا يَرْتَدِي قُبْعَةً جَوَادَهُ لِيَقِفَ بِجَوَارِ الْعَقِيدِ الَّذِي يَرَأْسُ كَتِيبَةِ هِنري، وَلَوَّحَ بِقُبْضَةِ يَدِهِ فِي وَجْهِ الْعَقِيدِ.

صَاحَ اللُّوَاءُ مُحَدِّثًا: «كَانَ عَلَيْكَ رَدُّعُهُمْ! كَانَ عَلَيْكَ رَدُّعُهُمْ!»

وَسَطَ شُعُورِ الْعَقِيدِ بِالْإِرْتِبَاكِ، بَدَأَ يَتَحَدَّثُ مُتَلَعِّثًا.

«حَسَنًا يَا جِنْرَالُ! سَس... وَ... فَ دَس... دَس... نَفَعَلْ ... نَفَعَلْ مَا فِي وُسْعِنَا يَا جِنْرَالُ.»

أَوْمَأَ الْجِنْرَالُ إِيْمَاءً مَمْرُوجَةً بِالْغَضَبِ، وَقَادَ الْجَوَادَ مُبْتَعِدًا. غَمَّعَ أَحَدُ الرِّجَالِ

بِالْقُرْبِ مِنْ هِنري: «لَقَدْ حَانَ الْوَقْتُ! لَقَدْ حَانَ الْوَقْتُ!»

كَانَ قَائِدُ الْفِرْقَةِ يَذَرُعُ الْمَكَانَ ذَهَابًا وَإِيَابًا خَلْفَ الرِّجَالِ فِي انْفِعَالٍ، وَظَلَّ يَرْدُدُ: «لَا

تُطْلِقُوا النِّيرَانَ أَيُّهَا الْفِتْيَانُ. لَا تُطْلِقُوا النِّيرَانَ إِلَّا عِنْدَمَا أُخْبِرْكُمْ. انْتِظِرُوا حَتَّى يَقْتَرِبُوا

كَثِيرًا.»

أَلْقَى هنري نَظْرَةً عَلَى الْعَدُوِّ فِي الْحَقْلِ أَمَامَهُ، وَتَوَقَّفَ عَنِ التَّفَكُّيرِ فِيمَا إِذَا كَانَتْ
الْبُنْدُقيَّةُ مُحْشُوَّةً أَمْ لَا. وَقَبْلَ أَنْ يَسْتَعِدَّ، وَقَبْلَ أَنْ يُخْبِرَ نَفْسَهُ أَنَّهُ عَلَى وَشِكِ الْفِتَالِ، صَوَّبَ
بُنْدُقيَّتَهُ، وَأَطْلَقَ أَوَّلَ رَصَاصَةٍ عَشْوَائِيَّةٍ، حَتَّى قَبْلَ أَنْ يَصْدُرَ إِلَيْهِ الْأَمْرُ، ثُمَّ اسْتَمَرَّ فِي
تَشْغِيلِ سِلَاحِهِ.

فَقَدَ هنري فَجَاءَةً قَلْفَهُ عَلَى نَفْسِهِ؛ إِذْ شَعَرَ وَكَأَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ شَيْءٍ أَكْبَرَ، كَانَ الشَّيْءُ
الْوَحِيدُ الَّذِي يَعْرِفُهُ أَنَّهُ مَهْمَا يَكُنْ مَا هُوَ فِيهِ الْآنَ، فَهُوَ فِي وَرْطَةٍ، لَنْ يَسْتَطِيعَ بِأَيِّ حَالٍ
أَنْ يَتْرَكَ كَتِيبَتَهُ بَعْدَ الْآنَ. كَانَ دَائِمَ الْإِنْتِبَاهِ لِرِفَاقِهِ الْوَاقِفِينَ بِجَوَارِهِ، وَكَأَنَّ رَابِطَةَ إِخَاءٍ
قَدْ وُلِدَتْ مِنْ بَيْنِ الدُّخَانِ وَخَطَرِ الْمَوْتِ.

الفصل السابع

وَأَخِيرًا الْقِتَالُ

عَمِلَ هنري بِسُرْعَةٍ، وَمَلَأَ أُذُنَيْهِ صَوْتُ ضَجِيجِ مُزْعِجٍ، وَمَا إِنَّ مَرَّ الصَّوْتِ، حَتَّى شَعَرَ بِغَضَبٍ شَدِيدٍ وَكَأَنَّهُ وَحْشٌ يُضَيِّقُ عَلَيْهِ الْخِنَاقَ. حَارَبَ هنري بِجُنُونٍ، وَكَانَ جَمِيعُ الرِّجَالِ مِنْ حَوْلِهِ يُصْدِرُونَ أَصْوَاتًا غَرِيبَةً. لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَتَّظَاهَرُ بِمَظْهَرِ الْبُطُولَةِ، بَلْ كَانُوا مُنْشَغِلِينَ لِلْغَايَةِ بِحَشْوِ الْبَنَادِقِ وَإِطْلَاقِ النَّيْرَانِ وَإِعَادَةِ حَشْوِهَا.

وَقَفَ الضُّبَّاطُ وَرَاءَ الرِّجَالِ وَأَخَذُوا يُشَجِّعُونَهُمْ.

التَقَى مُلَازِمٌ وَحْدَهُ هنري بِجُنْدِيٍّ كَانَ قَدْ فَرَّ عِنْدَمَا بَدَأَ إِطْلَاقُ النَّيْرَانِ، فَجَذَبَهُ مِنْ يَاقَتِهِ وَأَرْغَمَهُ عَلَى الْعُودَةِ إِلَى الصَّفِّ الْأَمَامِيِّ. عَادَ الْجُنْدِيُّ، لَكِنْ كَانَ وَاضِحًا أَنَّ قَلْبَهُ لَمْ يَكُنْ فِي مِيدَانِ الْمَعْرَكَةِ. حَاوَلَ الْجُنْدِيُّ إِعَادَةَ تَعْبِئَةِ بُنْدُقِيَّتِهِ، لَكِنْ يَدَيْهِ كَانَتَا تَرْتَجِفَانِ بِشِدَّةٍ حَتَّى اضْطُرَّ الْمُلَازِمُ إِلَى مُسَاعَدَتِهِ.

تَسَاقَطَ الرِّجَالُ هُنَا وَهُنَاكَ، وَكَانَ قَائِدُ فِرْقَةِ هنري قَدْ قُتِلَ فِي بَدَايَةِ الْمَعْرَكَةِ. كَانَ جَسَدُهُ مُمَدَّدًا كَرَجُلٍ يَسْتَرِيحُ، لَكِنْ عَلَتْ وَجْهَهُ نَظْرَةٌ دَهْشَةٍ وَأَسَى، وَكَأَنَّهُ قُتِلَ بِيَدِ صَدِيقٍ لَا يَبِيدُ عَدُوًّا. أُصِيبَ رَجُلٌ كَانَ يَبْكِي بِجَوَارِ هنري بِطَلْقَةِ أَسَالَتِ الدَّمَاءِ عَلَى وَجْهِهِ.

وَفِي النِّهَايَةِ، سَرَتْ صَيْحَةٌ فِي الصَّفِّ، وَتَوَقَّفَ إِطْلَاقُ النَّيْرَانِ. عِنْدَمَا انْتَشَعَ الدُّخَانُ، رَأَى هنري أَنَّ الرِّجَالَ ذَوِي الرِّزِيِّ الرَّمَادِيِّ قَدْ تَقَهَّقُوا إِلَى الْخَلْفِ. كَانَ الْعَدُوُّ مُنْتَشِرًا فِي مَجْمُوعَاتٍ، وَبَدَأَ بَعْضُ الْجُنُودِ فِي فِرْقَتِهِ بِالصِّيَاحِ، بَيْنَمَا حَيَّمَ الصَّمْتُ عَلَى الْكَثِيرِينَ. وَعِنْدَمَا هَدَأَ هنري، شَعَرَ وَكَأَنَّهُ سَيَحْتَنِقُ. كَانَ مُتَسَخِّمًا وَيَتَصَبَّبُ عَرَقًا؛ فَأَخَذَ شَرِبَةً طَوِيلَةً بَارِدَةً مِنْ قَرْبَةِ الْمِيَاهِ.

صَاحَ أَحَدُ الرِّجَالِ: «لَقَدْ دَحَرْنَاهُمْ!»

كَانَ هِنْرِي مُبْتَهَجًا. كَانَ مُحَاطًا بِالْكَثِيرِ مِنَ الْجُنُثِ الْمُمَدَّدَةِ حَوْلَهُ، وَكَأَنَّهَا قَدْ
سَقَطَتْ مِنَ السَّمَاءِ. لَقَدْ رَأَى الْمَعَارِكَ تَدُورُ رَحَاَهَا عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، وَنَعَجَبَ أَنَّهُ لَمْ
يَكُنْ فِي وَسْطِ الْمَعْرَكَةِ.
عِنْدَمَا نَظَرَ حَوْلَهُ، لَاحَظَ السَّمَاءَ الزَّرْقَاءَ وَالشَّمْسَ الَّتِي تُشْرِقُ عَلَى الْأَشْجَارِ وَالْحُقُولِ،
وَتَمَلَّكَتْهُ الدَّهْشَةُ مِنْ أَنَّ الطَّبِيعَةَ لَمْ تَتَأَنَّرْ بِكُلِّ تِلْكَ الْحُرُوبِ.

الفصل الثامن

فِرَارُ الرِّجَالِ

نَظَرَ هُنْرِي حَوْلَهُ تُصِيبُهُ حَالَةٌ مِنَ الدُّوَارِ. التَّقَطَّ قُبَعَتُهُ مِنَ الْأَرْضِ وَتَحَرَّكَ دَاخِلَ سُتْرَتِهِ حَتَّى يَسْتَوِيَ وَضَعَهَا، ثُمَّ انْحَنَى لِيَعْقِدَ رِبَاطَ حِذَائِهِ. لَقَدْ انْتَهَتْ أُخِيرًا! مَرَّ الْإِخْتِبَارُ، وَانْقَضَتْ صُعُوبَاتُ الْحَرْبِ. كَانَ مُبْنَهَجًا، وَعَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّهُ قَدْ أَبْلَى بَلَاءً حَسَنًا. شَعَرَ الرِّجَالُ الْآخَرُونَ بِنَفْسِ الْفَخْرِ الَّذِي شَعَرَ بِهِ هُنْرِي، فَصَافَحَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَسَاعَدُوا الْجَرَحَى مِنْهُمْ، لَكِنْ فَجَاءَ انْدَلَعَتْ صَيْحَاتُ الدُّهُولِ بَيْنَ الْجُنُودِ.

صَاحَ أَحَدُ الرِّجَالِ: «لَقَدْ أَتَوْا مَرَّةً أُخْرَى!»
رَأَى هُنْرِي عَنْ بُعْدٍ أَنَاثًا يَعْذُونَ خَارِجَ الْغَابَاتِ، وَرَأَى أَيْضًا الْعَلَمَ الْمَائِلَ يُسْرِعُ إِلَى الْأَمَامِ.

دَارَتِ الْقَذَائِفُ — الَّتِي لَمْ تُرَبِّكِ الْجُنُودَ بَعْضَ الْوَقْتِ — حَوْلَهُمْ مَرَّةً أُخْرَى. كَانَتْ تَنْفَجِرُ وَسَطَ الْحَشَائِشِ وَبَيْنَ الْأَشْجَارِ. بَدَتْ الْإِنْفِجَارَاتُ كَأَنَّهَا زُهُورٌ غَرِيبَةٌ تَتَفَقَّحُ فِي حَرَكَةٍ عَنِيفَةٍ.

تَأَوَّهَ الرِّجَالُ، وَتَحَرَّكُوا فِي بُطْءٍ وَصُعُوبَةٍ. وَمَا إِنْ رَأَوْا الْإِقْتِرَابَ السَّرِيعَ لِلْعَدُوِّ، حَتَّى بَدَءُوا يَتَمَرَّدُونَ عَلَى وَاجِبِهِمْ.

سَأَلَ أَحَدُهُمْ: «لِمَ أَذَا لَا يُرْسَلُ أَحَدٌ دَعْمًا؟»
وَقَالَ آخَرُ: «لَنْ نَنْجُو مِنْ هُجُومِ ثَانٍ، لَمْ آتِ إِلَى هُنَا لِأَحَارِبَ جَيْشِ الْمُتَمَرِّدِينَ اللَّعِينِ كُلَّهُ وَحْدِي.»

حَدَّقَ هنري في دُھولٍ. بِالطَّبْعِ لَمْ يَكُنْ يَظُنُّ أَنَّ الْقِتَالَ سَيَكُونُ وَشِيكًا. لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ مَعْرَكَةٌ أُخْرَى. ظَلَّ يَنْتَظِرُ وَكَأَنَّ الْجَمِيعَ سَيَتَوَقَّفُونَ وَيَعْتَرِفُونَ أَنَّهُ كَانَ خَطَأً، لَكِنَّ إِبْطَالَ النِّيرَانِ بَدَأَ ثَانِيَةً، وَتَوَالَى فِي كُلِّ الْإِتِّجَاهَيْنِ. كَانَتْ رَقَبَةُ هنري تَرْتَعِشُ، وَيَدَاهُ مُتَبَيِّسَتَيْنِ. بَدَأَ يَتَخَيَّلُ أَنَّ جُنُودَ الْعَدُوِّ أَفْضَلُ وَأَقْوَى مِنَ الرِّجَالِ فِي فِرْقَتِهِ. لَا بَدْ وَأَنَّ جُنُودَ الْعَدُوِّ عِبَارَةٌ عَنِ آلَاتٍ مِنْ حَدِيدٍ. لَقَدْ بَدَؤَا كَالْتَنَانَيْنِ وَسَطَ الدُّخَانِ.

فَجَاءَتْ! تَوَقَّفَ رَجُلٌ كَانَ قَرِيبًا مِنْ هنري وَمُنْشَغَلًا بِحَشْوِ بُنْدُقِيَّتِهِ، وَلَازَ بِالْفِرَارِ وَهُوَ يُطْلِقُ صِيحَةً عَالِيَةً. شَاهَدَ رَجُلٌ آخَرُ كَانَتْ تَرْتَسِمُ عَلَى وَجْهِهِ عَلَامَاتُ الشَّجَاعَةِ هَذَا الْمَشْهَدَ، وَتَمَلَّكَهُ الْخَوْفُ، فَالْقَى هُوَ الْآخَرُ بِبُنْدُقِيَّتِهِ وَلَازَ بِالْفِرَارِ. لَمْ يَبْدُ الْخِزْيُ عَلَى وَجْهِهِ، كَانَ يَفِرُّ كَالْأَرَنْبِ.

بَدَأَ رِجَالُ آخَرُونَ فِي الرُّكُضِ وَسَطَ الدُّخَانِ، وَشَاهَدَهُمْ هنري؛ فَصَرَخَ صَرْخَةً هَلَعِ وَاسْتَدَارَ وَأَخَذَ يَعْدُو.

لِلْحَلْظَةِ فَقَدْ هنري إِحْسَاسَهُ بِالِاتِّجَاهِ الْإِمْنِ؛ فَالْمَوْتُ وَالْإِصَابَةُ يَهْدِدَانِهِ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ. بَدَأَ يَرْكُضُ نَحْوَ مَوْخَرَةٍ فِرْقَتِهِ، وَفَقَدْ بُنْدُقِيَّتَهُ وَقُبْعَتَهُ، وَطَارَ مَعْطُفُهُ مَفْتُوحَ الْأَرْزَارِ مَعَ الرِّيَّاحِ. كَانَ وَجْهُ هنري مَكْسُوءًا بِالرُّعْبِ الَّذِي نَسَجَهُ فِي خَيَالِهِ. حَاوَلَ الْمُلَازِمُ أَنْ يُمْسِكَ بِهِ، لَكِنَّهُ هَرَبَ، هَرَبَ مِثْلَ رَجُلٍ كَفِيفٍ، اصْطَدَمَ كَتِفُهُ بِإِحْدَى الْأَشْجَارِ بِقُوَّةٍ فَسَقَطَ أَرْضًا.

مَا إِنَّ أَدَارَ هنري ظَهَرَهُ إِلَى الْعَدُوِّ، حَتَّى تَزَايَدَتْ مَخَافَتُهُ أَكْثَرَ فَاكْثَرَ. جَعَلَ خَيَالُهُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْوَأَ مِمَّا هُوَ عَلَيْهِ حَقِيقَةً؛ وَبَيْنَمَا كَانَ يَفِرُّ، رَأَى الرِّجَالَ عَلَى يَمِينِهِ وَعَلَى يَسَارِهِ يَفْعَلُونَ الشَّيْءَ نَفْسَهُ، وَسَمِعَ وَقَعَ أَقْدَامٍ عَدِيدَةٍ خَلْفَهُ. تَسَاقَطَتِ الْقَذَائِفُ فَوْقَ رَأْسِهِ تُصَاحِبُهَا صَرَخَاتُ طَوِيلَةٍ جَامِحَةٍ.

انْتَابَ هنري الدُّهُولَ عِنْدَمَا مَرَّ عَلَى جَمَاعَةٍ أُخْرَى يُشَارِكُ أَفْرَادَهَا فِي الْقِتَالِ، كَانُوا يُقَاتِلُونَ بِحِمَاسٍ بَالِغٍ، وَلَا أَحَدٌ مِنْهُمْ يَبْدُو عَلَى دِرَايَةِ بِالْمَوْتِ الْقَائِمِ نَحْوَهُمْ. فَكَّرَ هنري أَنَّهُمْ حَمَقَى وَأَشْفَقَ عَلَيْهِمْ.

وَاصَلَ هنري تَحَرُّكَهُ بَعِيدًا عَنِ الْأَحْدَاثِ، وَأَخِيرًا، رَأَى جِنْرَالًا يَمْتَطِي جَوَادًا. أحيانًا يَكُونُ الْجِنْرَالُ مُحَاطًا بِرِجَالٍ آخَرِينَ عَلَى صَهَوَاتٍ جَيَادِهِمْ، وَأحيانًا أُخْرَى يَكُونُ بِمُفْرَدِهِ.

مَكَثَ هُنْرِي بِجَوَارِ الْجِنْرَالِ، وَحَاوَلَ أَنْ يَسْتَرِقَ السَّمْعَ لِمَا كَانَ يَقُولُ. رُبَّمَا يَسْأَلُهُ
الْجِنْرَالُ عَنْ مَعْلُومَاتٍ فَيُخْبِرُهُ هُنْرِي بِكُلِّ الْإِزْتِبَاكِ الَّذِي يَجْتَاحُ الصُّفُوفَ الْأَمَامِيَّةَ؛ لِأَنَّهُ
كَانَ يَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ. أَرَادَ هُنْرِي أَنْ يُخْبِرَ الْجِنْرَالَ أَنَّهُ مِنَ الْخَطِئِ أَنْ يَجْلِسَ هُنَا دُونَ أَنْ
يَبْدُلَ أَيَّ جُهْدٍ لِإِقْيَافِ الْمَوْتِ الَّذِي يَحْصُدُ الْأَرْوَاحَ خَلْفَهُ. أَيُّ أَحْمَقَ سَيَقُولُ إِنَّهُ يَنْعَيْنُ عَلَى
الرَّجَالِ التَّقَهُّقْرِ إِلَى الْوَرَاءِ.

هُرَعَ أَحَدُ الضُّبَاطِ إِلَى الْجِنْرَالِ، وَقَالَ: «بِحَقِّ السَّمَاءِ، لَقَدْ فَعَلُوهَا! لَقَدْ أَوْفَقُوهُمْ!»
بَدَأَ الْجِنْرَالُ يَصِيحُ فِي جُنُودِهِ: «لَقَدْ نَلْنَا مِنْهُمْ! نَلْنَا مِنْهُمْ بِالتَّأَكِيدِ!»

الفصل التاسع

رَجُلُ الْغَابَةِ

انْكَمَشَ هنري وكأنَّه مُتَلَبِّسٌ بِجَرِيمَةٍ. لَقَدْ انْتَصَرُوا رَغَمَ كُلِّ شَيْءٍ! الْحُمَقَى الَّذِينَ ظَلُّوا فِي الْخَلْفِ هَزَمُوا الْعَدُوَّ. اسْتَطَاعَ سَمَاعُ الْهُتَافِ مِنْ خَلْفِهِ. اسْتَدَارَ وَقَدْ تَمَلَّكَهُ شُعُورٌ بِالذُّهُولِ وَالْغَضَبِ، شَعَرَ أَنَّهُ أَخْطَأَ.

أَخْبَرَ هنري نَفْسَهُ أَنَّهُ فَرَّ لِأَنَّ الْهَزِيمَةَ السَّاحِقَةَ كَانَتْ وَشِيقَةً. لَقَدْ فَعَلَ الصَّوَابَ بِأَنْ أَنْقَذَ نَفْسَهُ. كَانَ هنري جُزْءًا صَغِيرًا مِنَ الْجَيْشِ، وَوَاجِبُ كُلِّ جُزْءٍ صَغِيرٍ أَنْ يُنْقَذَ نَفْسُهُ إِذَا اسْتَطَاعَ. وَبَعْدَهَا يُمَكِّنُ لِلضُّبَاطِ إِعَادَةَ تَجْمِيعِ الْأَجْزَاءِ الصَّغِيرَةِ مَعًا لِتَكُونِ الْجَيْشَ ثَانِيَةً. أَكَّدَ هنري لِنَفْسِهِ أَنْ تَصَرُّفَهُ كَانَ تَصَرُّفًا حَكِيمًا.

فَكَرَّ هنري فِي رِفَاقِهِ الَّذِينَ تَبَتُّوا وَرَبِحُوا الْمَعْرَكَةَ؛ وَزَادَتْ هَذِهِ الْفِكْرَةَ مِنْ شُعُورِهِ بِالْمَرَارَةِ؛ إِذْ بَدَأَ أَنْ حَمَاقَتَهُمْ قَدْ خَدَعَتْهُ. لَقَدْ ظَنَّ أَنَّهُ تَصَرَّفَ بِذِكَاةٍ عِنْدَمَا لَازَ بِالْفِرَارِ، وَالْآنَ يَشْعُرُ بِغَضَبٍ شَدِيدٍ مِنْ رِفَاقِهِ الَّذِينَ لَمْ يَفْعَلُوا الْأَمْرَ ذَاتَهُ.

أَدْرَكَ هنري أَنَّ رِفَاقَهُ سَيَسْخَرُونَ مِنْهُ عِنْدَ عَوْدَتِهِ إِلَى الْمَعْسَكِ، وَبَدَأَ يُشْفِقُ عَلَى نَفْسِهِ عِنْدَمَا فَكَّرَ فِي الْمُعَامَلَةِ السَّيِّئَةِ الَّتِي سَيَلْقَاهَا مِنْهُمْ. تَرَكَ الْحَقْلَ، وَاتَّجَهَ إِلَى بُقْعَةٍ كَثِيفَةٍ فِي الْغَابَةِ. أَرَادَ أَنْ يَبْتَعدَ عَنِ صَوْتِ الطَّلَاقَاتِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي كَانَتْ لَا تَزَالُ تُدَوِّي.

كَانَتْ الْأَرْضُ مُغَطَّاةً بِالْكَرُومِ وَالشَّجَرَاتِ وَالْأَشْجَارِ الْقَرِيبِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَشُقَّ طَرِيقَهُ عَبْرَهَا. جَرَحَتْ أَشْوَاكُ الشَّجَرَاتِ قَدَمَيْهِ، وَسَدَّتْ فُرُوعُ الْأَشْجَارِ الطَّرِيقَ أَمَامَهُ. لَمْ يَسْتَطِعِ السَّيْرَ فِي هُدُوءٍ دَاخِلِ الْغَابَةِ، بَلْ أَصْدَرَ جَلْبَةً شَدِيدَةً حَتَّى بَاتَ خَائِفًا مِنْ أَنْ يَسْمَعَهُ الْآخَرُونَ. ابْتَعَدَ كَثِيرًا دَاخِلَ الْغَابَةِ يَبْحَثُ عَنْ مَكَانٍ

مُظْلِمٍ يُمَكِّنُهُ الْبَقَاءُ فِيهِ وَجِيدًا. وَبَعْدَ فَتْرَةٍ، خَفَتَ صَوْتُ إِطْلَاقِ النَّيْرَانِ، وَانْطَلَقَتْ أَصْوَاتُ الْمَدَافِعِ بَعِيدًا. تَوَهَّجَتِ الشَّمْسُ وَسَطَ الْأَشْجَارِ، بَيْنَمَا أَصْدَرَتِ الْحَشَرَاتُ أَصْوَاتًا كَايْقَاعِ الْمَوْسِيقَى. لَقَدْ بَدَأَ وَكَانَتْهَا تَصْرُّ بِأَسْنَانِهَا فِي تَنَاعُمٍ. قَرَعَ نَقَارُ الْخَشَبِ جَانِبَ إِحْدَى الْأَشْجَارِ، وَمَرَّ طَائِرٌ فِي الْهَوَاءِ.

بَعِيدًا كَانَ طِينُ الْمَوْتِ، أَمَّا هُنَا فَلَا يَسْمَعُ هِنري سَوَى أَصْوَاتِ الطَّبِيعَةِ. وَسَطَ هَذَا الْمَشْهَدِ، شَعَرَ هِنري أَنَّهُ أَفْضَلُ حَالًا. كَانَ يَشْعُرُ بِالسَّكِينَةِ. سَقَطَ كُورُ صَنْوَبِرٍ مِنْ فَوْقِ شَجَرَةٍ، وَهَبَطَ بِجَوَارِ سَنْجَابٍ فَرَّ بَعِيدًا، وَرَأَى هِنري أَنَّ هَذَا هُوَ قَانُونُ الطَّبِيعَةِ. لَقَدْ أَدْرَكَ السَّنْجَابُ أَنَّ هُنَاكَ خَطَرًا يُحْدِقُ بِهِ؛ فَهَرَبَ بَعِيدًا. تَوَعَّلَ هِنري فِي الْعَابَةِ، وَأَخِيرًا وَصَلَ إِلَى مَكَانٍ بَدَتْ فِيهِ الْأَغْصَانُ الْمُرْتَفِعَةُ الْمُقَوَّسَةُ وَكَانَتْهَا تُشَكِّلُ كَنِيسَةً صَغِيرَةً. شَكَلَتْ أَوْرَاقُ الصَنْوَبِرِ بِسَاطًا بُنْيَا، وَكَانَ هُنَاكَ ضَوْءٌ خَافَتْ.

تَوَقَّفَ عِنْدَ الْمَذْخَلِ مَصْدُومًا مِمَّا رَأَاهُ أَمَامَهُ. كَانَ أَمَامَهُ جُنَّةٌ رَجُلٍ يَسْتَنِدُ بِظَهْرِهِ إِلَى إِحْدَى الْأَشْجَارِ. كَانَ الرَّجُلُ يَرْتَبِي زِيًّا أَزْرَقَ اللَّوْنِ فِيمَا مَضَى، لَكِنَّهُ الْآنَ بَهَتْ حَتَّى صَارَ دَرَجَةً كَثِيبَةً مِنَ اللَّوْنِ الْأَخْضَرِ. تَغَيَّرَتْ عَيْنَا الرَّجُلِ اللَّتَانِ كَانَتَا تُحَدِّقَانِ فِي هِنري إِلَى لَوْنٍ بَاهِتٍ مِثْلَ جَوَانِبِ السَّمَكَةِ. كَانَ فَمُهُ مَفْتُوحًا، وَتَغَيَّرَتْ شَفَتَاهُ اللَّتَانِ كَانَتَا حَمْرَاوَيْنِ يَوْمًا إِلَى لَوْنٍ أَصْفَرٍ مُخِيفٍ. كَانَ النَّمْلُ الصَّغِيرُ يَزْحَفُ فَوْقَ بَشَرَةِ الرَّجُلِ الرَّمَادِيَّةِ، وَإِحْدَاهُنَّ تَحْمِلُ كُتْلَةً مَا فَوْقَ شَفَتِهِ الْعُلْيَا. أَطْلَقَ هِنري صَرْخَةً عِنْدَمَا رَأَى الْجُنَّةَ، وَلَمْ يَسْتَطِعِ التَّحَرُّكَ أَوْ إِشَاحَةَ نَظَرِهِ بَعِيدًا عَنِ الرَّجُلِ. بَدَأَ وَكَانَتْهُ تَحَوَّلَ إِلَى صَخْرَةٍ لِبَضْعِ دَقَائِقٍ. حَدَقَ فِي عَيْنَيِ الرَّجُلِ الْغَرِيبِ، وَبِطْءٍ وَضَعَ إِحْدَى يَدَيْهِ خَلْفَهُ وَأَسْنَدَهَا عَلَى إِحْدَى الْأَشْجَارِ، وَعَلَى وَضْعِهِ هَذَا أَخَذَ يَرْجِعُ إِلَى الْخَلْفِ خُطْوَةً خُطْوَةً، وَهُوَ لَا يَزَالُ يَنْظُرُ إِلَى الرَّجُلِ. كَانَ يَخْشَى لَوْ اسْتَدَارَ أَنْ تَقْفَرَ الْجُنَّةُ وَتُطَارِدَهُ.

اصْطَدَمَتِ الْأَغْصَانُ بِهِنري وَكَانَتْهَا تُهَدِّدُهُ بِأَنْ تُسْقِطَهُ أَرْضًا. عَلِقَتْ قَدَمَاهُ فِي الْكُرُومِ، وَتَحِيلَ أَنَّهُ يَلْمُسُ الْجُنَّةَ، فَاَنْتَقَضَ فَزَعًا.

رَجُلُ الْغَايَةِ

أَخِيرًا تَخَلَّصَ هِنْرِي مِنَ الْأَغْصَانِ وَالْكُرُومِ، وَهَرَبَ بَعِيدًا. لَمْ يَكُنْ يَنْظُرُ فِي أَيِّ اتِّجَاهٍ
يَذْهَبُ، بَلْ اكْتَفَى بِالرَّكْضِ. فِي مُحِيلَتِهِ، كَانَتْ تُطَارِدُهُ صُورَةُ النَّمْلِ الْأَسْوَدِ الرَّاحِفِ فَوْقَ
الْوَجْهِ الرَّمَادِيِّ.

بَعْدَ فَتْرَةٍ، تَوَقَّفَ هِنْرِي وَأَرْهَفَ السَّمْعَ. كَانَ يَلْهَثُ مِنْ أَثَرِ الْعَدُوِّ. تَخَيَّلَ صَوْتًا غَرِيبًا
يَصْدُرُ مِنْ حَلْقِ الرَّجُلِ الْمَيِّتِ وَيَصْرُخُ فِيهِ.

تَحَرَّكَتِ الْأَشْجَارُ خَلْفَهُ حَوْلَ الْجَنَّةِ مَعَ الرِّيحِ الْهَادِئَةِ، وَخَيَّمَ صَمْتُ كَثِيبٍ عَلَى
الْمَكَانِ.

الفصل العاشر

صَاحِبُ الثِّيَابِ الرَّثَّةِ

عَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَتَوَقَّفَ ضَجِيجُ الْحَشَرَاتِ بَعْضَ الْوَقْتِ، وَوَسَطَ هَذَا السُّكُونِ، انْطَلَقَتْ فَجْأَةً أَصْوَاتٌ كَثِيرَةٌ مُتَدَاخِلَةٌ. تَوَقَّفَ هنري وأَرْهَفَ السَّمْعَ. أَتَى صَوْتُ صِيَاكِ مِنْ بَعِيدٍ، وَسَمِعَ هنري الصَّوْتَ الْمُدَوِّيَ لِإِطْلَاقِ النَّارِ وَانْطِلَاقِ الْمَدَافِعِ.

تَشَتَّتَ زَهْنُ هنري فِي كُلِّ الْإِتِّجَاهَاتِ. تَحَيَّلَ أَنَّ الْجَيْشَيْنِ لَا يَزَالَانِ يُحَارِبُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ. وَبَعْدَ أَنْ أَرْهَفَ السَّمْعَ وَقَفًّا طَوِيلًا، بَدَأَ يَجْرِي فِي اتِّجَاهِ مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ. عَلِمَ هنري أَنَّهُ مِنَ الْغَرِيبِ أَنْ يَرْكُضَ بِاتِّجَاهِ الْمَعْرَكَةِ وَهُوَ الَّذِي بَذَلَ جُهْدًا بَالِغًا لِيَبْتَعِدَ عَنْهَا، لَكِنَّهُ أَخْبَرَ نَفْسَهُ أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ الْأَرْضُ وَالْقَمَرُ عَلَى وَشِكِ الْإِصْطِدَامِ، فَسَيَصْعَدُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِلَى أَسْطُحِ مَنَازِلِهِمْ لِيَشَاهِدُوا حُدُوثَ ذَلِكَ. كَانَ لَدَيْهِ الشُّعُورُ نَفْسُهُ تَجَاهَ الْمَعْرَكَةِ؛ فَلَمْ يَشَأْ تَفْوِيتَ حَدِثٍ سَيَتَحَدَّثُ النَّاسُ عَنْهُ لِسَنَوَاتٍ تَالِيَةٍ.

جَالَ بِخَاطِرِ هنري وَهُوَ يَرْكُضُ أَنَّ الْمَعْرَكَةَ الَّتِي شَهِدَهَا لَمْ تَكُنْ سِوَى إِحْمَاءٍ. عِنْدَمَا سَمِعَ أَصْوَاتَ الْمَعْرَكَةِ الَّتِي تَدُورُ الْآنَ، بَدَأَ يَشُكُّ فِي أَنَّهُ قَدْ شَهِدَ قِتَالًا مِنْ قَبْلُ. كَادَ الْأَمْرُ يَكُونُ مُضْحِكًا؛ فَقَدْ أَخَذَ هُوَ وَرِفَاقُهُ الْعَدُوَّ عَلَى مَحْمَلِ الْجِدِّ، وَتَحَيَّلُوا أَنَّهُمْ سَيُحْسِمُونَ الْمَعْرَكَةَ. ظَنُّوا جَمِيعًا أَنَّهُمْ سَيُضْبِحُونَ أَبْطَالًا، لَكِنَّ الْحَقِيقَةَ أَنَّ أَحَدًا لَنْ يَذْكُرَهُمْ عَلَى الْإِطْلَاقِ.

أَسْرَعَ هنري إِلَى الْأَمَامِ مُتَحَيِّلًا كُلَّ مَشَاهِدِ الْمَعْرَكَةِ. حَاوَلَتْ أَغْصَانُ الْأَشْجَارِ وَالْكُرُومِ رَدْعَهُ وَإِعَاقَةَ طَرِيقِهِ، لَكِنَّهُ تَجَاوَزَهَا كُلَّهَا، وَسُرْعَانَ مَا رَأَى حَوَاجِزَ الدُّخَانِ

الرَّمَادِيَّةُ الْمُرْتَفَعَةُ. فَرَزَ هنري عِنْدَمَا سَمِعَ صَوْتَ الْمَدَافِعِ مِنْ حَوْلِهِ، وَأَخَذَ يُحَدِّقُ النَّظَرَ فِي اتِّجَاهِ الْمُعْرَكَةِ.

وَأخِيرًا، وَاصَلَ هنري طَرِيقَهُ إِلَى الْأَمَامِ، وَبَدَتْ أَصْوَاتُ الْمُعْرَكَةِ مِثْلَ صَرِيرِ آلَةٍ مُرَوَّعَةٍ. كَانَ سَمَاعُ تِلْكَ الْأَصْوَاتِ رَائِعًا، لَكِنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَفْتَرِبَ أَكْثَرَ لِيَرَى مَا يَحْدُثُ. وَصَلَ هنري إِلَى طَرِيقٍ بِهِ حَشْدٌ مِنَ الرِّجَالِ الْمُصَابِينَ يَسِيرُونَ بِبُطْءٍ بَعِيدًا عَنْ أَرْضِ الْمُعْرَكَةِ. كَانُوا يَكِيلُونَ الشَّتَائِمَ، وَيَتَأَوَّهُونَ، وَيَبْكُونَ. كَانَ أَحَدُهُمْ يَحْمِلُ جِذَاءً مَلِيئًا بِالْدَّمَاءِ، وَأَخَذَ يَقْفِزُ مِثْلَ تِلْمِيزٍ فِي الْمَدْرَسَةِ وَيَضْحَكُ كَالْمَجْنُونِ، بَيْنَمَا كَانَ آخَرُ يُغْنِي بِصَوْتٍ غَالٍ مُرْتَعِشٍ. وَكَانَ الْكَثِيرُ مِنَ الرِّجَالِ غَاضِبِينَ، بَيْنَمَا سَاعَدَ بَعْضُهُمْ فِي حَمْلِ ضَابِطٍ كَانَ يَصِيحُ بِالْأَوَامِرِ فِي الرِّجَالِ الْقَرِيبِينَ مِنْهُ.

انْضَمَّ هنري إِلَى هَذَا الْحَشْدِ وَسَارَ مَعَهُمْ. سَارَ رَجُلٌ رَثُ الثِّيَابِ بِهُدُوءٍ إِلَى جَوَارِ هنري. كَانَ مُغَطَّى بِالْغُبَارِ وَالْدَّمَاءِ، وَلَدَيْهِ بَقْعٌ بَارُوْدٍ تَغْطِي شَعْرَهُ إِلَى جَذَائِهِ، وَكَانَ يَسْتَمِعُ إِلَى رَقِيبٍ يَتَحَدَّثُ مَعَهُ. وَبَعْدَ بُرْهَةٍ اقْتَرَبَ الرَّجُلُ ذُو الثِّيَابِ الرَّثَّةِ مِنْ هنري مُحَاوِلًا التَّحَدَّثَ مَعَهُ. رَأَى هنري أَنَّ الرَّجُلَ مُصَابٌ بِجُرْحَيْنِ؛ وَاحِدٌ فِي ذِرَاعِهِ وَالْآخَرُ فِي رَأْسِهِ وَمَرْبُوطٌ بِقِطْعَةٍ قُمَاشٍ مُمْتَلِئَةٍ بِالْدَّمَاءِ. كَانَ صَوْتُ الرَّجُلِ ذِي الثِّيَابِ الرَّثَّةِ رَقِيقًا، وَبَدَتْ عَيْنَاهُ وَكَأَنَّهُمَا تَتَوَسَّلَانِ شَيْئًا.

سَأَلَ الرَّجُلُ: «كَانَتْ مُعْرَكَةٌ جَيِّدَةً، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

رَفَعَ هنري — الَّذِي كَانَ مُسْتَغْرِقًا فِي التَّفَكِيرِ — بَصَرَهُ إِلَى الْوَجْهِ الْبَائِسِ الْمُغَطَّى بِالْدَّمَاءِ، وَقَالَ: «مَاذَا؟»

سَأَلَ الرَّجُلُ: «كَانَتْ مُعْرَكَةٌ جَيِّدَةً، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

قَالَ هنري: «بلى.» وَبَدَأَ يُسْرِعُ فِي السَّيْرِ، لَكِنَّ الرَّجُلَ لَحِقَهُ.

قَالَ الرَّجُلُ: «لَمْ أَرِ رِجَالًا يَقَاتِلُونَ هَكَذَا مِنْ قَبْلُ، يَا لَهَا مِنْ مُعْرَكَةٍ! كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ فِتْيَانَنَا سَيَتَحَلَّوْنَ بِالْقُوَّةِ مَا إِنْ بَدَأَ الْقِتَالُ. كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ الْأُمُورَ سَتَتَوَلَّى لِمَا آتَى إِلَيْهِ. لَا يُمَكِّنُ هَزِيمَةُ فِتْيَانِنَا يَا سَيِّدِي. إِنَّهُمْ مُحَارِبُونَ لَا شَكَّ.»

نَظَرَ الرَّجُلُ إِلَى هنري عِدَّةَ مَرَّاتٍ لِيُشَجِّعَهُ عَلَى الْحَدِيثِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ، فَوَاصَلَ الرَّجُلُ حَدِيثَهُ.

قال: «كُنْتُ أَتَحَدَّثُ مَعَ فَتَى مِنْ جُورْجِيَا فِي جَيْشِ الْعَدُوِّ، قَالَ إِنَّهُ سَيَهْرُبُ مَا إِنْ يَبْدَأُ إِطْلَاقُ النَّيْرَانِ، فَقُلْتُ إِنَّنَا لَنْ نَفْعَلَ. قُلْتُ رَبِّمَا يَفِرُّ رِجَالُهُ، فَضَحِكَ. حَسَنًا، لَمْ يَفِرَّ أَحَدٌ الْيَوْمَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ حَارَبَ الْجَمِيعُ بِأَقْصَى مَا يَسْتَطِيعُونَ مِنْ جُهْدٍ.»
وَارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهِ نَظْرَةٌ حُبٌّ لِلْجَيْشِ. سَأَلَ الرَّجُلُ هِنْرِي بَعْدَ بُرْهَةٍ: «أَيْنَ أُصِيبْتَ يَا فَتَى؟»

شَعَرَ هِنْرِي بِالذُّعْرِ فَوْرًا عِنْدَ سَمَاعِ السُّؤَالِ.

سَأَلَ هِنْرِي: «مَاذَا؟»

فَسَأَلَهُ الرَّجُلُ ثَانِيَةً: «أَيْنَ أُصِيبْتَ؟»

رَدَّ هِنْرِي: «لِمَاذَا؟ ... أَنَا ... أَنَا ... إِنَّهُ ... لِمَاذَا؟ أَنَا ...»

اسْتَدَارَ هِنْرِي فَجَاءَهُ، وَأَخَذَ يَرْكُضُ وَسَطَ الْحَشْدِ. اكْتَسَى وَجْهُهُ بِاللَّوْنِ الْأَحْمَرِ، وَالتَّقَطَّتْ أَصَابِعُهُ فِي تَوْتَرٍ أَحَدَ أَزْرَارِهِ. ظَلَّ مُنْكَسَّ الرَّأْسِ يُحَدِّقُ فِي الزَّرِّ كَأَنَّ بِهِ خَطْبًا مَا.

الفصل الحادي عشر

جيم كونكلن

تَرَاجَعَ هنري حَتَّى مُؤَخَّرَةِ الْحَشْدِ، وَظَلَّ مُتَوَارِيًّا عَنِ الْأَنْظَارِ حَتَّى اخْتَفَى الْجُنْدِيُّ رَثُ الثِّيَابِ، ثُمَّ بَدَأَ يَسِيرُ مَعَ الْأَخْرَيْنَ. لَكِنَّهُ كَانَ مُحَاطًا بِالْجَرْحَى. السُّؤَالُ الَّذِي طَرَحَهُ عَلَيْهِ الْجُنْدِيُّ رَثُ الثِّيَابِ جَعَلَهُ يَشْعُرُ أَنَّ عَارَهُ سَيَكُونُ مَلْحُوظًا لِلْجَمِيعِ. كَانَ هنري يَنْظُرُ أحيانًا إِلَى الرِّجَالِ الْأَخْرَيْنَ بَعَيْنٍ مَلُؤَهَا الْحَسَدُ. كَانَ يَتَمَنَّى لَوْ كَانَ لَدَيْهِ جُرْحٌ هُوَ الْآخَرُ؛ شَارَةً حَمْرَاءَ تَدُلُّ عَلَى شَجَاعَتِهِ.

كَانَ هُنَاكَ رَجُلٌ مُصَابٌ عَلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ. حَاوَلَ الرِّجَالُ الْأَخْرُونَ مُسَاعَدَتَهُ، لَكِنَّهُ أَبْعَدَهُمْ وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَتْرَكُوهُ وَشَأْنَهُ. كَانَ وَجْهُهُ رَمَادِيًّا، وَشَفَتَاهُ مُغْلَقَتَيْنِ بِإِحْكَامٍ. تَحَرَّكَ الرَّجُلُ بِصُعُوبَةٍ وَكَأَنَّهُ يُحَاوِلُ أَنْ يَحْمِيَ جُرُوحَهُ. بَدَأَ أَنَّهُ يَبْحَثُ أَثْنَاءَ سَيْرِهِ عَنْ مَكَانٍ يَتَوَقَّفُ فِيهِ. بَدَأَ وَكَأَنَّهُ شَخْصٌ يَبْحَثُ عَنْ مَقْبَرَةٍ.

شَيْءٌ مَا فِي الطَّرِيقَةِ الَّتِي لَوَّحَ بِهَا الرَّجُلُ إِلَى الْجُنُودِ الْأَخْرَيْنَ لِيَتَّبِعُوا عَنْهُ أَدْهَشَ هنري، فَصَاحَ فِي فَرْعٍ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى ذِرَاعِ الرَّجُلِ، وَعِنْدَمَا التَفَتَ إِلَيْهِ، صَاحَ هنري: «جيم كونكلن!»

ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِ جِيمِ ابْتِسَامَةٌ صَغِيرَةٌ، وَقَالَ: «مَرْحَبًا يَا هنري.»

قَالَ هنري: «آه يَا جيم! آه يَا جيم! آه يَا جيم!»

سَأَلَهُ جِيم: «أَيْنَ كُنْتَ يَا هنري؟» وَمَدَّ يَدَيْهِ: «كُنْتُ قَلَقًا عَلَيْكَ.»

لَمْ يَسْتَطِعْ هنري أَنْ يَقُولَ شَيْئًا سِوَى: «آه يَا جيم!»

قَالَ جِيم: «أَنْعَلَمْ؟ لَقَدْ كُنْتُ هُنَاكَ، يَا لَهُ مِنْ سِيرِكَ. لَقَدْ أَصِبتُ، لَقَدْ أَصِبتُ. الْوَضْعُ

سَيُّئٌ لِلْغَايَةِ.»

وَبَيْنَمَا وَاصِلُ الصَّدِيقَانِ سَيْرُهُمَا، بَدَأَ أَنَّ الْخَوْفَ قَدْ غَلَبَ جِيمَ فَجْأَةً، فَأَمْسَكَ بِذِرَاعِ هنري وَبَدَأَ يَتَحَدَّثُ بِصَوْتِ هَامِسٍ مُرْتَجِفٍ. رَأَى هنري أَنَّ صَدِيقَهُ وَاهِنٌ لِلْغَايَةِ.
قال جيم: «سَأُخْبِرُكَ عَمَّا يُقْلِقُنِي يَا هنري، أَخَافُ أَنْ أَسْقُطَ أَرْضًا، فَأِمَّا يَتْرُكُونَنِي هُنَا، وَإِمَّا تَدْهُسُنِي عَرَبَاتُ الْمِدْفَعِيَّةِ.»
صَاحَ هنري: «سَأُعْتَنِي بِكَ يَا جيم! أَقْسِمُ أَنِّي سَأَفْعَلُ.»
تَشَبَّثَ جِيمُ بِذِرَاعِ هنري.

سَأَلَ جِيمُ: «لَطَالَمَا كُنْتُ صَدِيقًا مُخْلِصًا لَكَ يَا هنري، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ لَطَالَمَا كُنْتُ شَخْصًا جَيِّدًا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ لَسْتُ أَطْلُبُ الْكَثِيرَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ فَقَطِ اسْحَبْنِي بَعِيدًا عَنِ الطَّرِيقِ، سَارُدُّهَا لَكَ يَا هنري.»

لَمْ يَسْتَطِعْ هنري أَنْ يَقُولَ شَيْئًا، وَسَارَ جِيمُ مُبْتَعِدًا عَنْهُ.
تَبِعَ هنري صَدِيقَهُ، وَبَعْدَ قَلِيلٍ سَمِعَ صَوْتًا يَأْتِي مِنْ وَرَاءِ كَتِفِهِ، وَعِنْدَمَا اسْتَدَارَ، إِذَا بِهِ يَجِدُ الْجُنْدِيَّ رَثَّ الثِّيَابِ.
قَالَ الْجُنْدِيُّ: «يَنْبَغِي أَنْ تُبْعِدَهُ عَنِ الطَّرِيقِ أَيُّهَا الرَّفِيقُ؛ فَهَنَّاكَ عَرَبَةٌ قَادِمَةٌ، وَسَوْفَ تَدْهُسُهُ.»

هُرِعَ هنري إِلَى صَدِيقِهِ، وَحَاوَلَ سَحْبَهُ مِنَ الطَّرِيقِ. حَاوَلَ جِيمُ أَنْ يَنْتَعِدَ لَحْظَةً، ثُمَّ قَالَ: «إِلَى الْحُقُولِ؟»
بَدَأَ جِيمُ يَرْكُضُ وَسَطَ الْحَشَائِشِ، وَهنري يَرْكُضُ وَرَاءَهُ. صَاحَ هنري عَلَيْهِ كَيْ يَتَوَقَّفَ، لَكِنَّهُ وَاصِلَ الرِّكْضِ. شَعَرَ هنري بِالدَّهْشَةِ لِأَنَّ صَدِيقَهُ لَا يَزَالُ يَمْتَلِكُ كُلَّ هَذِهِ الْقُوَّةِ.

سَأَلَهُ هنري بِصَوْتٍ مُرْتَعِدٍ: «إِلَى أَيْنَ أَنْتَ ذَاهِبُ يَا جيم؟ فِيمَ تَفَكَّرُ؟ مَاذَا تَفْعَلُ؟»
اسْتَدَارَ جِيمُ، وَقَالَ: «اتْرُكْنِي وَشَانِي، أَلَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؟»
سَأَلَهُ هنري فِي دُھُولٍ: «لِمَاذَا يَا جيم؟ مَا خَطْبُكَ؟»
اسْتَدَارَ جِيمُ، وَرَكَضَ إِلَى الْأَمَامِ، فَتَبِعَهُ هنري وَالْجُنْدِيُّ رَثَّ الثِّيَابِ تَتَابُعُهُمَا مَشَاعِرُ الدَّهْشَةِ وَالْخَوْفِ. بَدَأَ الْأَمْرُ وَكَأَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ طَقْسٍ دِينِيٍّ، وَأَخِيرًا رَأَى جِيمُ يَتَوَقَّفُ فِي مَكَانِهِ. بَدَأَ وَكَأَنَّهُ يَنْتَظِرُ بِأَنَاءَةٍ شَيْئًا جَاءَ لِيَلْتَقِيَهُ.
خَيَّمَ الصَّمْتُ عَلَى الْجَمِيعِ.

جيم كونكلن

وَأَخِيرًا، أَخَذَ صَدْرُ جِيم يَنْتَفِضُ، وَسَقَطَ أَرْضًا.
اتَّجَهَ هنري بِغَضَبٍ مُفَاجِئٍ نَحْوَ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ. لَوْحَ بَقْبُضَةٍ يَدِهِ، وَبَدَأَ عَلَى وَشِكِ
الصُّرَاخِ.
فَوْقَهُ، كَانَ قُرْصُ الشَّمْسِ الْأَحْمَرُ مُلتَصِقًا فِي السَّمَاءِ كَأَنَّهُ رُقَاقَةٌ مِنَ الْبَسْكَوِيَّتِ.

الفصل الثاني عشر

سؤال الجُنْدِيِّ رَثَّ الثِّيَابِ

وَقَفَ الرَّجُلُ رَثَّ الثِّيَابِ يُفَكِّرُ.
وَأَخِيرًا، قَالَ بِصَوْتٍ مَمْزُوجٍ بِالذَّهْشَةِ: «يَا لَهُ مِنْ مَشْهَدٍ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ أَتَعْجَبُ مِنْ
أَيِّنْ جَاءَ بِكُلِّ تِلْكَ الْقُوَّةِ! لَمْ أَرْ مِنْ قَبْلُ رَجُلًا يَجْرِي هَكَذَا بَعْدَ أَنْ أُصِيبَ بِضَعِ مَرَاتٍ!
كَانَ أَمْرًا غَرِيبًا!»
أَرَادَ هُنْرِي أَنْ يَصْرُخَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصْدِرَ أَيَّ صَوْتٍ. وَقَفَ الرَّجُلُ ذُو الثِّيَابِ
الرَّثَّةِ وَرَاقِبُهُ.
قَالَ الرَّجُلُ بَعْدَ بُرْهَةٍ: «انْظُرْ يَا رَفِيقِي، لَقَدْ رَحَلَ صَدِيقُكَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ مِنْ الْأَفْضَلِ
لَكَ أَنْ تَهْتَمَّ بِنَفْسِكَ، لَنْ يَكْثُرَ أَحَدٌ لِإِزْعَاجِ صَدِيقِكَ بَعْدَ الْآنَ، وَعَلَيَّ أَنْ أَقُولَ إِنَّنِي لَا أَتَمَتَّعُ
بِصَحَّةٍ جَيِّدَةٍ هَذِهِ الْأَيَّامَ.»
نَظَرَ هُنْرِي إِلَى الرَّجُلِ بِسُرْعَةٍ، وَرَأَى أَنَّهُ كَانَ يَتَرَنِّحُ عَلَى قَدَمَيْهِ، وَأَنَّ وَجْهَهُ تَغَيَّرَ إِلَى
لَوْنٍ أَزْرَقٍ غَرِيبٍ.
صَاحَ هُنْرِي: «لَسْتُ أَنْتَ أَيْضًا، لَنْ تَذُ...»
لَوَّحَ الرَّجُلُ بِيَدِهِ.
قَالَ الرَّجُلُ: «لَا، كُلُّ مَا أَحْتَاجُهُ هُوَ حِسَاءُ الْبَازِلَاءِ، وَفِرَاشٌ وَثِيرٌ.»
بَدَأَ يَسِيرَانِ عَائِدَيْنِ إِلَى الطَّرِيقِ. تَحَرَّكَ بِهِدْوٍ بَعْضُ الْوَقْتِ، وَأَخِيرًا، قَالَ الرَّجُلُ رَثَّ
الثِّيَابِ: «أَتَعْلَمُ يَا رَفِيقِي؟ بَدَأْتُ أَشْعُرُ بِتَدَهُورٍ شَدِيدٍ.»
تَأَوَّهَ هُنْرِي وَتَسَاءَلَ هَلْ سَيَشْهَدُ عَرْضًا مُرَوِّعًا آخَرَ، لَكِنَّ صَدِيقَهُ الْجَدِيدَ طَمَأَنَّهُ.

قَالَ الرَّجُلُ: «أوه، لَمْ يَحِنْ الْوَقْتُ بَعْدُ. لَدَيَّ الْكَثِيرُ لِأَفْعَلَهُ. عَلَيْكَ أَنْ تَرَى كَمْ طِفْلٍ لَدَيَّ!»

لَمَحَ هنري ظِلَّ ابْتِسَامَةٍ عَلَى وَجْهِ الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ يَمْرُحُ.
سَارًا مَسَافَةً أَطْوَلَ، وَتَحَدَّثَ الرَّجُلُ ذُو النَّيَابِ الرَّثَّةِ عَنْ مَسْقِطِ رَأْسِهِ، بَعْدَهَا قَالَ
بِهْدُوءٍ بِالْغِ: «لَا أَظُنُّ أَنِّي أَسْتَطِيعُ مُوَاصَلَةَ السَّيْرِ، وَأَنْتَ أَيْضًا تَبْدُو مُرْهَقًا جِدًّا، أَرَاهُنُ
أَنَّكَ أَسْوَأُ حَالًا مِمَّا تَظُنُّ. عَلَيْكَ الْإِعْتِنَاءُ بِجُرْحِكَ؛ لَيْسَ مِنَ الْجَيِّدِ أَنْ تَتْرَكَ هَذِهِ الْجُرُوحَ
مِنْ دُونِ عِنَايَةٍ. أَيِنَّ جُرْحُكَ؟»

كَانَ هنري يَأْمُلُ أَلَّا يُكَرِّرُ الرَّجُلُ هَذَا السُّؤَالَ ثَانِيَةً. أَطْلَقَ صَرْخَةً غَضَبٍ، وَأَشَاحَ
بِيَدِهِ فِي حَنْقٍ.

قَالَ هنري مُحْتَدًّا: «كُفَّ عَنْ إِزْعَاجِي.» الْخِزْيُ الَّذِي كَانَ يَشْعُرُ بِهِ جَرَاءَ مَا فَعَلَهُ
جَعَلَهُ يَصْرُخُ فِي وَجْهِ صَدِيقِهِ الْوَحِيدِ الْآنَ.
قَالَ الرَّجُلُ بِصَوْتٍ يَشُوبُهُ الْحُزْنُ: «يَعْلَمُ اللهُ أَنِّي لَا أُرِيدُ مُضَايَقَةَ أَحَدٍ. يَعْلَمُ اللهُ أَنَّ
لَدَيَّ مَا يَكْفِي مِنَ الْقَلْقِ.»

تَحَدَّثَ هنري — الَّذِي كَانَ يُفَكِّرُ وَيَرْمُقُ الرَّجُلَ بِنَظَرَةٍ كَرَاهِيَةٍ — بِنَبْزَةٍ حَادَّةٍ.
قَالَ هنري: «إِلَى اللَّقَاءِ.»

نَظَرَ الرَّجُلُ ذُو النَّيَابِ الرَّثَّةِ إِلَيْهِ فِي ذُهُولٍ.

سَأَلَهُ مُتَرَدِّدًا: «لِمَاذَا؟ ... لِمَاذَا يَا صَدِيقِي؟ إِلَى أَيِّنَ أَنْتَ ذَاهِبٌ؟» بَدَأَ رَأْسُهُ غَارِقًا فِي
الْأَفْكَارِ. «الآنَ ... الآنَ ... انْظُرْ ... هُنَا، أَنْتَ ... الآنَ ... لَنْ يَحْدُثَ ذَلِكَ ... لَنْ يُجِدِي هَذَا
نَفْعًا، إِلَى أَيِّنَ؟ ... إِلَى أَيِّنَ أَنْتَ ذَاهِبٌ؟»
أَشَارَ هنري قَائِلًا: «إِلَى هُنَاكَ.»

قَالَ الرَّجُلُ مُتَعَثِّمًا: «حَسَنًا، انْظُرِ الآنَ ... هُنَا ... الآنَ.» كَانَ رَأْسُهُ يَتَدَلَّى إِلَى الْأَمَامِ،
وَقَالَ مُعْغَمًا: «لَنْ يَنْجَحَ ذَلِكَ الْآنَ. أَنَا أَعْرِفُكَ، تَوَدُّ أَنْ تَذْهَبَ وَلَدَيْكَ جُرْحٌ غَائِرٌ. هَذَا
لَيْسَ جَيِّدًا، عَلَيْكَ أَنْ تَتْرَكْنِي لِأَعْتَبِي بِكَ. لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ تَذْهَبَ ... تَسِيرَ ... بِجُرْحٍ بِالْغِ ...
لَيْسَ ... لَيْسَ جَيِّدًا ... لَيْسَ جَيِّدًا.»

تَسَلَّقَ هنري أَحَدَ الْأَسْبِجَةِ، وَبَدَأَ يَرْكُضُ بَعِيدًا. سَمِعَ صَوْتَ الرَّجُلِ يُنَادِيهِ، لَكِنَّهُ
وَاصَلَ الْابْتِعَادَ. وَبَعْدَ أَنْ ابْتَعَدَ مَسَافَةً، اسْتَدَارَ فَرَأَى الرَّجُلَ يَهِيمُ وَسَطَ الْحَقْلِ.

سؤال الجندي رث الثياب

تَمَنَّى هنري لو أَنَّهُ أُصِيبَ فِي الْمَعْرَكَةِ. السُّؤَالُ الْبَسِيطُ الَّذِي وَجَّهَهُ الرَّجُلُ إِلَيْهِ كَانَ
مِثْلَ الْجُرْحِ. أَذْرَكَ هنري أَنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ إِخْفَاءَ سِرِّهِ. سَيَعْلَمُ الْجَمِيعُ أَنَّهُ فَرَّ مِنَ الْمَعْرَكَةِ.
لَمْ يَسْتَطِعْ حَتَّى أَنْ يَحْمِيَ نَفْسَهُ مِنَ الْأَسْئَلَةِ الْبَسِيطَةِ.

الفصل الثالث عشر

فُرْصَةٌ ثَانِيَّةٌ لِلانْضِمَامِ إِلَى الْمَعْرَكَةِ

انْتَبَهَ هنري فجأةً إِلَى أَنَّ هَدِيرَ الْمَعْرَكَةِ كَانَ يَزْدَادُ شَيْئًا فَشَيْئًا. مَرَّتْ فَوْقَهُ سُحُبٌ بُيَّيَّةٌ كَبِيرَةٌ، وَاقْتَرَبَ الضَّجِيجُ أَكْثَرَ. وَعِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى قِمَّةِ أَحَدِ التَّلَالِ، رَأَى أَنَّ الطَّرِيقَ قَدْ امْتَلَأَ بِالْعَرَبَاتِ الَّتِي تَجْرُهَا الْخَيُْولُ، وَبِالرِّجَالِ. كَانَ الْخَوْفُ يُحَرِّكُ الْجَمِيعَ.

شَعَرَ هنري بِالرَّاحَةِ عِنْدَمَا رَأَى هَذَا الْمَشْهَدَ. كَانَ الْجَمِيعُ يَفْرُونَ. رُبَّمَا لَمْ يَكُنْ هُوَ سَيِّئًا إِلَى هَذَا الْحَدِّ عَلَى أَيِّ حَالٍ. جَلَسَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَشَاهَدَ الْجَمِيعَ يَمْرُونَ مِنْهُ. كَانُوا يَفْرُونَ مِثْلَ حَيَوَانَاتٍ صَغِيرَةٍ مُنْزَعَجَةٍ، وَوَجَدَ هنري بَعْضَ السَّعَادَةِ فِي مُشَاهَدَةِ تِلْكَ الْمَسِيرَةِ الَّهِمِجِيَّةِ.

سُرْعَانَ مَا ظَهَرَتْ مَجْمُوعَةٌ مِنْ جُنُودِ الْمَشَاةِ عَلَى الطَّرِيقِ؛ كَانُوا يَتَحَرَّكُونَ بِسُرْعَةٍ وَيَدُورُونَ حَوْلَ كُلِّ مَا يُصَادِفُهُمْ فِي الطَّرِيقِ. كَانَ هَؤُلَاءِ الْجُنُودُ يَتَوَجَّهُونَ نَحْوَ قَلْبِ الْمَعْرَكَةِ، وَكَانُوا عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِمُوَاجَهَةِ انْدِفَاعِ الْعَدُوِّ الْمُتَحَمِّسِ. اكْتَسَتْ وَجُوهُهُمْ بِمَلَامِحِ الْجِدِّ، وَلَمَسَ هنري شُعُورَهُمْ بِالْأَهْمِيَّةِ.

عِنْدَمَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ، عَادَ إِلَيْهِ الشُّعُورُ بِالْحُزَنِ؛ شَعَرَ وَكَأَنَّهُ يُشَاهِدُ صَفًّا مِنَ الْجُنُودِ وَقَعَ الْإِخْتِيَارُ عَلَيْهِمْ خُصُوصًا لِيَكُونُوا أَبْطَالًا. لَنْ يَكُونَ وَاحِدًا مِنْهُمْ أَبَدًا. كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَبْكِيَ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ.

تَمَنَّى هنري لَوْ اسْتَطَاعَ أَنْ يُصْبِحَ بَطَلًا، وَلِلْحَظَةِ كَانَ عَلَى وَشَكِ الْقِيَامِ وَالانْضِمَامِ إِلَيْهِمْ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى الْمَعْرَكَةِ، لَكِنَّ الصُّعُوبَاتِ الْمُحِيطَةَ بِوَضْعِهِ بَدَأَتْ تَنْبِيهِهِ عَنْ عَزْمِهِ، وَأَصَابَهُ التَّرَدُّدُ.

لَمْ يَكُنْ يَحْمِلُ بُدْقِيَّةً، لَكِنَّ هُنَاكَ الْكَثِيرَ مِنَ الْبَنَادِقِ حَوْلَهُ، وَيُمْكِنُهُ التَّقَاطُ إِحْدَاهَا. فَكَّرَ أَيْضًا أَنَّهُ سَيَكُونُ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيْهِ الْعُنُورُ عَلَى كَتِيبَتِهِ مَرَّةً أُخْرَى، لَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ يَسْتَطِيعُ الْقِتَالُ مَعَ أَيِّ كَتِيبَةٍ أُخْرَى. بَدَأَ هِنْرِي يَتَحَرَّكُ إِلَى الْأَمَامِ رُوَيْدًا رُوَيْدًا يَقَاوِمُ مَخَاوِفَهُ.

وَفِي النِّهَايَةِ تَغَلَّبَتِ اعْتِرَاضَاتُ هِنْرِي عَلَى شَجَاعَتِهِ. لَمْ يَكُنْ مُنْزَعَجًا لِلْغَايَةِ مِنْ قَرَارِهِ. فَعِنْدَمَا فَكَّرَ فِيهِ رَأَى أَنَّ الْمُسْكَلَاتِ الَّتِي يُوَاجِهُهَا عَوِيصَةٌ حَقًّا؛ وَالْآنَ وَفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ بَدَأَتْ مُسْكَلَاتُ أُخْرَى تُثِيرُ انْزِعَاجَهُ.

كَانَ يُعَانِي ظَمًا شَدِيدًا. كَانَ وَجْهُهُ جَافًا حَتَّى إِنَّهُ شَعَرَ وَكَأَنَّ بَشْرَتَهُ سَتَسْتَشْفِقُ. كُلُّ عَظْمَةٍ فِي جَسَدِهِ كَانَتْ تَوَلِّمُهُ، وَقَدَمَاهُ كَانَتَا مُتَقَرِّحَتَيْنِ. أَلَمَتُهُ مَعِدَتُهُ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ، وَأَصْبَحَ لَا يَسْتَطِيعُ الرُّؤْيَةَ بوضوحٍ. أَدْرَكَ هِنْرِي أَنَّهُ لَنْ يَكُونَ بَطَلًا أَبَدًا. تَأَوَّاهُ مِنْ فَرَطِ الْحُزَنِ وَهَامَ عَلَى وَجْهِهِ بَعِيدًا.

ظَلَّ هِنْرِي قَرِيبًا مِنْ مَيِّدَانِ الْمَعْرَكَةِ. كَانَتْ لَدَيْهِ رَغْبَةٌ كَبِيرَةٌ فِي رُؤْيَةِ الْقِتَالِ وَاسْتِطْلَاعِ الْأَخْبَارِ. كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَعْلَمَ لِمَنْ سَيَكُونُ النَّصْرُ.

فَكَّرَ هِنْرِي أَنَّهُ فِي حَالَةِ هَزِيمَةٍ جَيْشِهِ، سَيَصُبُّ ذَلِكَ فِي مَصْلَحَتِهِ. لَقَدْ ظَنَّ أَنَّ الْعَدِيدَ مِنَ الرِّجَالِ الشُّجْعَانِ سَيَلْوَدُونَ بِالْفِرَارِ إِذَا مَا دَحَرَهُمُ الْعَدُوُّ، وَحِينَهَا سَيَكُونُ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ، وَلَنْ يَعْرِفَ أَحَدٌ أَنَّهُ قَدْ لَازَ بِالْفِرَارِ قَبْلَ ذَلِكَ.

إِذَا خَسِرَ جَيْشُهُ الْحَرْبَ، فَسَيَكُونُ هَذَا دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ قَدْ فَعَلَ الصَّوَابَ بِهَرَبِهِ. سَيُثَبِّتُ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ قَادِرًا عَلَى اسْتِشْرَافِ مَا سَيَحْدُثُ، وَكَأَنَّهُ يَسْتَطِيعُ التَّنَبُّؤَ بِالْمُسْتَقْبَلِ. كَانَ لِهَذَا الدَّلِيلِ أَهْمِيَّةٌ كُبْرَى لَدَى هِنْرِي؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَقْبَلُ فِكْرَةَ أَنَّهُ قَدْ فَعَلَ شَيْئًا مُشِينًا.

أَمَّا إِذَا انْتَصَرَ الْجَيْشُ، فَسَيَقَعُ هِنْرِي فِي مَازِقٍ. كَانَ يُدْرِكُ أَنَّ التَّفَكِيرَ فِي أُمُورٍ كَهَذِهِ أَمْرٌ بَغِيضٌ، وَنَبَعَتْ نَفْسُهُ بِالْوَعْدِ لِمَجَرَّدِ التَّفَكِيرِ فِي ذَلِكَ.

ثُمَّ جَالَتْ بِخَاطِرِ هِنْرِي فِكْرَةٌ أُخْرَى؛ فَصَحِيحٌ أَنَّ هَزِيمَةَ جَيْشِهِ سَتُنْقِذُهُ مِنْ فَعْلَتِهِ، لَكِنَّهُ قَرَّرَ أَنَّهُ مِنْ غَيْرِ الْمُجْدِي التَّفَكِيرُ فِي ذَلِكَ الْإِحْتِمَالِ. فَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ جَيْشَهُ لَنْ يَهْزِمَ أَبَدًا.

فَكَرَّ هُنْرِي فِي اخْتِلَاقِ قِصَّةٍ جَيِّدَةٍ يَقْصُصُهَا عَلَى مَسَامِعِ الْجُنُودِ الْآخَرِينَ فِي كَتِيبَتِهِ.
فَكَرَّ فِي أُمُورٍ عَدِيدَةٍ، لَكِنَّهَا جَمِيعًا كَانَتْ ضَعِيفَةً لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ تَصْدِيقُهَا.
تَخَيَّلَ مَشْهَدَ أَفْرَادِ الْكَتِيبَةِ كُلِّهِمْ وَهُمْ يَسْخَرُونَ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ فَرَّ مِنَ الْمَعْرَكَةِ.
سَيَسْأَلُونَ: «أَيْنَ هُنْرِي فَلَيْمَنْج؟ لَقَدْ هَرَبَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ يَا إِلَهِي!»
تَخَيَّلَ هُنْرِي الْجَمِيعَ يُحَدِّثُونَ فِيهِ بِنَظَرَاتٍ مِلْؤُهَا الْكَرَاهِيَةُ أَيْنَمَا ذَهَبَ فِي الْمُعَسْكَرِ.
سَيَضْحَكُ الْجَمِيعُ مِنْهُ بِأَسْلُوبٍ دَنِيءٍ، وَسَيَكُونُ مَحَطَّ سُخْرِيَةِ الْجَمِيعِ.

الفصل الرابع عشر

إِصَابَةُ حَرْبٍ

مَا إِنْ اخْتَفَى الْجُنُودُ الَّذِينَ كَانُوا يَسِيرُونَ عَلَى الطَّرِيقِ عَنِ الْأَنْظَارِ حَتَّى رَأَى هُنْرِي كَثِيرِينَ آخَرِينَ قَادِمِينَ مِنَ الْغَابَاتِ وَعَبْرَ الْحُقُولِ. أَذْرَكَ هُنْرِي أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْرُبُونَ إِنْقَادًا لِحَيَاتِهِمْ. انْدَفَعُوا بِجَوَارِهِ كَقَطِيعٍ مِنَ الْجَامُوسِ الْمَذْعُورِ، وَخَلَفَهُمْ تَمَوَّجُ الدُّخَانِ وَتَجَمَّعَ فَوْقَ قِمَمِ الْأَشْجَارِ بَيْنَمَا اسْتَمَرَّ انْطِلَاقُ الْمَدَافِعِ.

انْتَابَتْ هُنْرِي حَالَةً مِنَ الذُّعْرِ، وَحَدَّقَ فِي الْمَشْهَدِ أَمَامَهُ فِي ذُحُولٍ؛ لَقَدْ خَسِرَ الْجَيْشُ الْمَعْرَكَةَ. سُرِعَانَ مَا وَجَدَ هُنْرِي نَفْسَهُ وَسَطَ الْفَارِيزِ. حَاوَلَ أَنْ يَطْرَحَ بَعْضَ الْأَسْئَلَةِ عَلَى الْقَرِيبِينَ مِنْهُ، لَكِنْ يَبْدُو أَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوهُ. كَانَ الرِّجَالُ يَفْرُونَ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ، وَأَخِيرًا، أَمْسَكَ هُنْرِي بِذِرَاعِ أَحَدِ الرِّجَالِ، وَتَمَايَلَ كِلَاهُمَا وَجْهًا لَوَجْهِهِ.

قَالَ هُنْرِي مُتَلَعِّثًا: «لِمَاذَا...؟ لِمَاذَا...؟»

صَرَخَ الرَّجُلُ: «دَعْنِي! دَعْنِي!» كَانَ الرَّجُلُ يَلْهَثُ وَيَسْحَبُ نَفْسَهُ فِي هِيَاجٍ: «دَعْنِي!» تَمَتَّمَ هُنْرِي: «لِمَاذَا...؟ لِمَاذَا...؟»

صَاحَ الرَّجُلُ: «حَسَنًا، إِذَنْ!» وَضَرَبَ هُنْرِي فِي رَأْسِهِ وَلَازَ بِالْفِرَارِ.

سَقَطَ هُنْرِي أَرْضًا، وَوَجَدَ صُعُوبَةً فِي الْوُقُوفِ ثَانِيَةً. وَعِنْدَمَا وَقَفَ أَخِيرًا، شَعَرَ بِالْوَهَنِ الشَّدِيدِ، وَكَانَتْ هُنَاكَ ضَوْضَاءُ صَاحِبَةٍ فِي رَأْسِهِ. فِي النِّهَايَةِ نَجَحَ فِي الْإِنْتِقَالِ إِلَى الْحَشَائِشِ، وَشَعَرَ بِجُرْحٍ فِي أَعْلَى رَأْسِهِ.

رَأَى هُنْرِي بَعْضَ الْجُنُودِ وَالضَّبَّاطِ يُحَاوِلُونَ تَجْمِيعَ أَنْفُسِهِمْ لِلْعُودَةِ إِلَى الصُّفُوفِ. كَسَا ضَبَابُ الْمَسَاءِ الْأَزْرَقُ الْحَقْلَ، وَاكْتَسَتِ الْغَابَةُ بَظِلَالٍ قُرْمُزِيَّةً مُمْتَدَّةً، وَكَانَتْ هُنَاكَ

شارة الشجاعة الحمراء

سَحَابَةٌ وَجِيدَةٌ فِي السَّمَاءِ. تَرَكَ هِنْرِي الْمَشْهَدَ وَرَاءَهُ، وَمَا إِنَّ فَعَلَ حَتَّى سَمِعَ طَلَقَاتِ
الْبُنَادِقِ تُدَوِّي مُجَدِّدًا فَجَاءَ.

الفصل الخامس عشر

غَرِيبٌ يُقَدِّمُ الْعَوْنَ

تَسَارَعَتْ خُطُوَاتُ هِنْرِي عِنْدَ حُلُولِ الْغَسَقِ. بَعْدَ فِتْرَةٍ، لَمْ يَعُدْ جُرْحُهُ يُؤْلِمُهُ. فَكَّرَ هِنْرِي فِي مَوْطِنِهِ أَثْنَاءَ سَيْرِهِ، وَأَخِيرًا بَلَغَ الْإِنْهَاكُ مِنْهُ كُلَّ مَبْلَغٍ، فَتَدَلَّى رَأْسُهُ إِلَى الْأَمَامِ، وَانْحَنَتْ كَتِفَاهُ كَأَنَّهُ يَحْمِلُ حِمْلًا ثَقِيلًا، وَأَصْبَحَ يَجُرُّ قَدَمَيْهِ عَلَى الْأَرْضِ. فِي النِّهَايَةِ سَمِعَ صَوْتًا مُبْتَهَجًا بِجَوَارِ كَتِفِهِ يَقُولُ: «تَبْدُو بِحَالَةٍ سَيِّئَةٍ لِلْغَايَةِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

لَمْ يَرْفَعْ هِنْرِي بَصَرَهُ، لَكِنَّهُ قَالَ: «بَلَى». أَمْسَكَ صَاحِبُ الصَّوْتِ الْمُبْتَهَجِ بِذِرَاعِ هِنْرِي بِإِحْكَامٍ. قَالَ الرَّجُلُ ضَاحِكًا: «حَسَنًا، أَنَا ذَاهِبٌ فِي طَرِيقِكَ. الْمَجْمُوعَةُ كُلُّهَا ذَاهِبَةٌ فِي طَرِيقِكَ، وَأَطْنُ أَنْ بَاسِطِطَاعَتِنَا تَوْصِيلَكَ.»

أَثْنَاءَ سَيْرِهِمَا، سَأَلَ الرَّجُلُ هِنْرِي عَمَّا رَأَاهُ، وَأَخْبَرَهُ بِمَا يَعْرِفُهُ عَنْ كَتِيبَةِ هِنْرِي. قَالَ الرَّجُلُ: «إِنَّهُمْ هُنَاكَ فِي قَلْبِ الْمَعْرَكَةِ، اعْتَقِدْ أَنَّ الْجَمِيعَ قَدْ أَخَذُوا نَصِيبَهُمْ مِنَ الْقِتَالِ الْيَوْمَ. كِدْتُ أَسْتَسْلِمُ بَضْعَ مَرَّاتٍ. كَانَ هُنَاكَ صِرَاحٌ وَإِطْلَاقُ نَارٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ. حَلَّ الظَّلَامُ، وَلَمْ أَعُدْ أَعْرِفُ أَينَ أَنَا، أَوْ فِي أَيِّ جَانِبٍ أَكُونُ. كَيْفَ وَجَدْتَ طَرِيقَكَ إِلَى هُنَا عَلَى أَيِّ حَالٍ؟ فَكَيْتَبْتُكَ بَعِيدَةً جِدًّا مِنْ هُنَا. أَطْنُ أَنْ بِإِمْكَانِي الْعُثُورُ عَلَيْهِمْ.» أَثْنَاءَ الْبَحْثِ عَنْ كَتِيبَةِ هِنْرِي، بَدَأَ صَاحِبُ الصَّوْتِ الْمُبْتَهَجِ وَكَأَنَّ لَدَيْهِ مَهَارَةً سِحْرِيَّةً. كَانَ قَادِرًا عَلَى شَقِّ طَرِيقِهِ بِسُهُولَةٍ عَبْرَ الْغَابَاتِ الْمُتَشَابِكَةِ. وَكَلَّمَا مَرُّوا بِأَنَاسٍ آخَرِينَ، أَبْدَى الرَّجُلُ ذِكَاةَ الْمُحَقِّقِينَ وَشَجَاعَةَ الْأَبْطَالِ. كَانَتِ الْمُشْكِلَاتُ تَخْتَفِي أَمَامَهُ،

وَتَتَحَوَّلُ لِأَشْيَاءَ قَدْ تَسَاعَدُهُمَا فِي طَرِيقِهِمَا. كَانَ هُنْرِي يَنْتَحِي جَانِبًا عِنْدَمَا كَانَ رَفِيقُهُ يُحَاوِلُ أَنْ يَشُقَّ طَرِيقَ الْعُودَةِ لِكُلِيهِمَا.

بَدَتْ الْغَابَةُ وَكَانَتْهَا مُكَتَبَةٌ بِرَجَالٍ يَرْكُضُونَ فِي دَوَائِرَ وَقَدْ ضَلُّوا طَرِيقَهُمْ، لَكِنَّ رَفِيقَ هُنْرِي تَجَاوَزَ بِهِ كُلَّ الْعَثَرَاتِ حَتَّى بَدَأَ يَضْحَكُ فِي سَعَادَةٍ وَرَضَى أَخِيرًا.

قَالَ الرَّجُلُ: «هَا قَدْ وَصَلْتَ، أَتَرَى تِلْكَ النَّارَ؟»

أَوْمَأَ هُنْرِي بِرَأْسِهِ، وَتَمَلَّكَهُ شُعُورٌ بِالْحِمَاقَةِ.

قَالَ الرَّجُلُ: «هَذِهِ كَتَيْبَتُكَ. إِلَى اللَّقَاءِ الْآنَ يَا فَتَى. أَتَمَنَّى لَكَ حَظًّا سَعِيدًا.»

أَمْسَكَتْ يَدَ الرَّجُلِ الدَّافِئَةَ الْقَوِيَّةَ بِأَصَابِعِ هُنْرِي الرَّقِيقَةِ هُنِيئَةً، ثُمَّ سَمِعَ هُنْرِي

صَفِيرًا مُبْهِجًا أَثْنَاءَ ابْتِعَادِ الرَّجُلِ. كَانَ الرَّجُلُ وَدُودًا مَعَهُ، وَبَيْنَمَا رَاقَبَ هُنْرِي ابْتِعَادَهُ،

أَدْرَكَ فَجْأَةً أَنَّهُ لَمْ يَرَ وَجْهَهُ قَطُّ.

الفصل السادس عشر

الْعُودَةُ إِلَى الْمُعْسَكَرِ

اتَّجَهَ هنري بِبُطءٍ نَحْوَ النَّارِ يُفَكِّرُ خَائِفًا فِي كَيْفِيَّةِ اسْتِقْبَالِ أَصْدِقَائِهِ لَهُ. كَانَ عَلَى يَقِينٍ أَنَّهُمْ سَيَسْخَرُونَ مِنْهُ. فَكَّرَ فِي الْإِخْتِبَاءِ فِي الظَّلَامِ، لَكِنَّهُ كَانَ مُنْهَكًا لِلْغَايَةِ وَقَدْ بَلَغَ مِنْهُ الْأَلَمُ مَبْلَغَهُ.

اسْتَطَاعَ أَنْ يَرَى رِجَالًا يَنَامُونَ فَوْقَ الْأَرْضِ بِجِوَارِ النَّارِ، وَفَجْأَةً اقْتَرَبَ مِنْهُ شَخْصٌ طَوِيلُ الْقَامَةِ يَحْمِلُ بُنْدُقيَّةً.

صَاحَ الرَّجُلُ: «تَوَقَّفْ! تَوَقَّفْ!»

ارْتَبَكَ هنري لَحْظَةً، ثُمَّ اعْتَقَدَ أَنَّهُ تَعَرَّفَ عَلَى صَاحِبِ الصَّوْتِ.

قَالَ: «مَرْحَبًا، وِيلسون! هَلْ ... هَلْ هَذَا أَنْتَ؟»

انْخَفَضَتِ الْبُنْدُقيَّةُ، وَتَقَدَّمَ وِيلسون بِبُطءٍ، وَنَظَرَ فِي وَجْهِ هنري.

سَأَلَهُ وِيلسون: «أَهَذَا أَنْتَ يَا هنري؟ سَعِيدٌ بِرُؤْيَيْكَ يَا فَتَى، كُنْتُ قَدْ فَقَدْتُ الْأَمَلَ فِي

عُودَتِكَ.»

لَمْ يَكُنْ هنري يَقْوَى عَلَى الْوُقُوفِ، وَحَاوَلَ سَرْدَ قِصَّتِهِ سَرِيعًا.

قَالَ: «نَعَمْ، نَعَمْ، لَقَدْ مَرَرْتُ بِوَقْتٍ عَصِيبٍ. مَرَرْتُ بِكُلِّ الْأَمَاكِينِ. انْفَصَلْتُ عَنِ الْكُتَيْبَةِ،

وَأُصِبتُ هُنَا فِي رَأْسِي؛ لَقَدْ حَدَسْتُنِي الطَّلَقَةَ. لَمْ أَشْهَدْ قِتَالًا كَهَذَا قَطُّ، كَانَ وَضْعًا عَصِيبًا.

لَا أَعْلَمُ كَيْفَ انْفَصَلْتُ عَنِ الْكُتَيْبَةِ.»

تَحَرَّكَ وِيلسون مُسْرِعًا إِلَى الْأَمَامِ، وَقَالَ: «مَاذَا، أُصِبتَ؟ لِمَاذَا لَمْ تَقُلْ هَذَا عَلَى الْفُورِ

أَيُّهَا الْفَتَى الْمُسْكِينُ؟»

بَعْدَهَا خَرَجَ عَرِيفٌ مِنْ وَسْطِ الظَّلَامِ، وَقَالَ: «هنري! أَأَنْتَ هُنَا؟ ظَنَنْتُ أَنَّكَ قَدْ رَحَلْتَ مُنْذُ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ. يَا إِلَهِي! إِنَّهُمْ يُعَاوِدُونَ الظُّهُورَ كُلَّ بَضْعِ دَقَائِقٍ. ظَنَنَّا أَنَّنا فَقَدْنَا اثْنَيْنِ وَأَرْبَعَيْنِ رَجُلًا، لَكِنْ هَا هُمْ رَجَالُنَا يَعُودُونَ. بِهَذَا الْمُعْدَلِ سَيَعُودُ الْجَمِيعُ بِحُلُولِ الصَّبَاحِ. أَيْنَ كُنْتَ؟»

بَدَأَ هنري فِي الْكَلَامِ: «لَقَدْ انْفَصَلْتُ ...»

قَاطَعُهُ وِيلْسُونُ: «نَعَمْ، وَقَدْ أُصِيبَ فِي رَأْسِهِ، يَجِبُ أَنْ نَعْتَنِيَ بِهِ فِي الْحَالِ». أَخَذَ وِيلْسُونُ وَالْعَرِيفُ هنري إِلَى أَحَدِ الْأَعْطِيَةِ بِالْقُرْبِ مِنَ النَّارِ، وَبَدَأَ الْجُنُودَ الْآخَرُونَ يَمْدُونَ يَدَ الْمُسَاعَدَةِ مَا إِنْ رَأَوْهُ. رَبَطَ الْعَرِيفُ الْجُرْحَ فِي رَأْسِ هنري. بَيْنَمَا كَانَ هنري يَسْتَرِيحُ، نَظَرَ إِلَى الرِّجَالِ الْآخَرِينَ حَوْلَ النَّارِ. كَانَ بَعْضُهُمْ نَائِمِينَ يَحْمِلُونَ بَنَادِقَهُمْ وَسُيُوفَهُمْ، وَكَانَتْ أَجْسَادُهُمْ مُغَطَّاةً بِالطِّينِ وَالْأَوْسَاحِ، وَثِيَابُهُمْ مُمَرَّقَةٌ. بَدَأَ الْجَمِيعُ مُتَعَبِينَ لِلْغَايَةِ.

جَلَسَ هنري حَزِينًا حَتَّى عَادَ وِيلْسُونُ يَحْمِلُ قَرْبَتَيْنِ.

قَالَ وِيلْسُونُ: «حَسَنًا يَا هنري، سَتَكُونُ بِخَيْرٍ بَعْدَ قَلِيلٍ».

ذَكَى وِيلْسُونُ النَّارَ وَحَرَكَ الْعِصِيَّ فِيهَا، ثُمَّ سَقَى هنري مِنَ الْقِرْبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَحْتَوِي عَلَى قَهْوَةٍ بَارِدَةٍ. شَرِبَ هنري كَثِيرًا، وَلَطَفَتِ الْقَهْوَةُ حَلَقَهُ. وَبَعْدَمَا انْتَهَى، تَنَهَّدَ تَنَهِيدَةً سَعَادَةٍ وَرَاحَةٍ. بَعْدَهَا رَبَطَ وِيلْسُونُ رَأْسَ هنري بِمَنْدِيلٍ كَبِيرٍ.

قَالَ وِيلْسُونُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى مَا فَعَلَ: «هَا أَنْتَ ذَا تَبْدُو مِثْلَ الشَّيْطَانِ، لَكِنْ أَرَاهُنُ أَنَّكَ الْآنَ أَفْضَلُ. أَنْتَ قَوِيٌّ يَا هنري؛ حِينَمَا كُنَّا نَنْظِفُ جُرْحَكَ لَمْ نَصْرُخْ أَوْ تَتَفَوَّهَ بِشَيْءٍ، مَعَ أَنَّ إَصَابَاتِ الرُّؤْسِ تَكُونُ خَطِيرَةً. اسْتَلَقَ الْآنَ وَاحْصُلْ عَلَى بَعْضِ الرَّاحَةِ». اسْتَلْقَى هنري فِي حَذَرٍ، وَتَمَدَّدَ وَهُوَ يُطْلِقُ هَمَّهَاتٍ ارْتِيَاحٍ. بَدَتْ الْأَرْضُ كَأَنَّهَا أَرِيكَةٌ مَرِيحَةٌ.

لَكِنَّهُ قَامَ فَجَاءَةً وَقَالَ: «انْتَظِرْ لَحْظَةً، أَيْنَ سَتَنَامُ؟»

لَوَّحَ إِلَيْهِ صَدِيقَهُ.

قَالَ: «هُنَاكَ بِالْقُرْبِ مِنْكَ».

— «عَلَى أَيِّ شَيْءٍ سَتَنَامُ؟ فَغَطِّأُوكَ مَعِيَ».

دَمَدَمَ وِيلْسُونُ: «اهْدَأْ وَاحْلُدْ إِلَى النَّوْمِ. لَا تَكُنْ أَحْمَقَ».

الْعُودَةُ إِلَى الْمُعَسَّكِ

عِنْدِيذٍ صَمَتَ هنري. تَسَلَّلَ شُعُورٌ بِالنُّعَاسِ فِي جَسَدِهِ كُلِّهِ. وَتَحْتَ الْغِطَاءِ الْمُرِيحِ
الدَّافِي وَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى ذِرَاعِهِ وَأَغْمَضَتْ عَيْنَاهُ سَرِيعًا. وَعِنْدَمَا سَمِعَ أَصْوَاتَ إِطْلَاقِ النَّارِ
مِنْ بَعِيدٍ، تَسَاءَلَ: هَلْ يَنَامُ هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ؟ أَطْلَقَ تَنْهِيدَةً طَوِيلَةً، وَانْكَمَشَ دَاخِلَ الْغِطَاءِ،
وَسُرَّعَانَ مَا رَاحَ فِي النَّوْمِ مِثْلَ أَصْدِقَائِهِ.

الفصل السابع عشر

شِجَارُ دَاخِلِ الْمُعَسْكَرِ

عِنْدَمَا اسْتَيْقَظَ هِنْرِي مِنْ نَوْمِهِ، شَعَرَ وَكَأَنَّهُ ظَلَّ نَائِمًا أَلْفَ سَنَةٍ. ارْتَجَفَ وَجْهُهُ عِنْدَمَا سَقَطَتْ عَلَيْهِ قَطْرَةٌ نَدَى بَارِدَةٍ، وَحَدَّقَ بُرْهَةً فِي أَوْرَاقِ الشَّجَرِ الْمُتَطَايِرَةِ فَوْقَهُ. وَمِنْ بَعِيدٍ اسْتَطَاعَ سَمَاعَ أَصْوَاتِ الْقِتَالِ.

كَانَ مُحَاطًا بِمَجْمُوعَاتٍ مِنَ الرِّجَالِ النَّائِمِينَ فِي أَوْضَاعٍ غَرِيبَةٍ بِلَا حِرَاكٍ، يَعْلُو الشُّحُوبُ وَجُوهَهُمْ. لِلْحُظَّةِ ظَنَّ هِنْرِي أَنَّهُمْ جَمِيعًا مَوْتَى. بَعْدَهَا رَأَى وَيَلْسُونُ يَنْدَفَأُ بِنَارٍ صَغِيرَةٍ، وَرَأَى بِضْعَةَ رِجَالٍ يَتَحَرَّكُونَ وَسَطَ الضَّبَابِ، وَسَمِعَ صَوْتَ شَخْصٍ يَقْطَعُ الْأَشْجَابَ.

دَقَّتْ طُبُولُ الْحَرْبِ فَجَاءَةً، وَسَمِعَ مِنْ بَعِيدٍ صَوْتَ بُوقٍ خَافِتٍ. بَدَأَ الْجُنُودُ حَوْلَ هِنْرِي فِي الْاسْتَيْقَاطِ، وَرَأَى وَيَلْسُونُ أَنَّ هِنْرِي كَانَ مُسْتَيْقِظًا، فَسَأَلَهُ: «كَيْفَ حَالُكَ هَذَا الصَّبَاحَ يَا هِنْرِي؟»

تَتَأَبَّهَ هِنْرِي، كَانَ يَشْعُرُ بِثِقَلٍ فِي رَأْسِهِ، وَمَعِدَتُهُ تَوَلَّمُهُ.

قَالَ: «أَنَا مُتَعَبٌ كَثِيرًا.»

تَبَّتَ وَيَلْسُونُ الْعِصَابَةَ عَلَى رَأْسِ هِنْرِي، ثُمَّ أَعَدَّ بَعْضَ الطَّعَامِ لِكُلِيهِمَا. تَذَكَّرَ هِنْرِي كَيْفَ كَانَ صَدِيقُهُ يَتَصَرَّفُ عَلَى نَحْوِ مُخْتَلِفٍ لِلْغَايَةِ قَبْلَ مَعْرَكَتِهِمُ الْكُبْرَى. لَمْ يَعُدْ وَيَلْسُونُ ذَلِكَ الْجُنْدِيَّ الشَّابَّ عَالِي الصَّوْتِ، بَلْ أَصْبَحَ الْآنَ هَادِئًا وَاثِقًا مِنْ نَفْسِهِ، وَلَمْ يَعُدْ يَغْضَبُ مِنَ التَّعْلِيلَاتِ التَّافِهَةِ الَّتِي يَسْمَعُهَا مِنَ الْآخَرِينَ. تَسَاءَلَ هِنْرِي مَتَى حَلَّ هَذَا التَّغْيِيرُ بِصَدِيقِهِ.

وَضَعَ ويلسون فَنَجَانَ الْقَهْوَةَ عَلَى رُكْبَتِهِ، وَقَالَ: «كَيْفَ تَنْظُرُ إِلَى فُرْصَتِنَا فِي الْفَوْزِ يَا هنري؟ هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّنَا سَنَهْزِمُهُمْ؟»

فَكَّرَ هنري قَلِيلًا، ثُمَّ قَالَ: «إِذَا عُدْنَا بِالزَّمَنِ إِلَى أَوَّلِ أَمْسٍ، كُنْتُ سَتَقُولُ إِنَّكَ قَادِرٌ عَلَى هَزِيمَتِهِمْ بِمُفْرَدِكَ..»
بَدَأَ ويلسون مُنْذِهِشًا.

سَأَلَ ويلسون: «هَلْ كُنْتُ سَأَقُولُ هَذَا حَقًّا؟ حَسَنًا، رُبَّمَا تَكُونُ مُحِقًّا، أَعْتَقِدُ أَنَّي كُنْتُ سَادِجًا كَبِيرًا فِي السَّابِقِ.»

حَاوَلَ هنري أَنْ يَعْذِرَ لِأَنَّهُ أَحْرَجَ صَدِيقَهُ، لَكِنَّ ويلسون لَمْ يَكُنْ يَحْتَاجُ اعْتِدَارًا. بَعْدَ فِتْرَةٍ قَالَ ويلسون إِنَّ الْعَدُوَّ الْآنَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يُرِيدُونَهُ فِيهِ تَمَامًا.
قَالَ هنري: «لَا أَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ هَذَا. بَدَأَ لِي مِنْ مَكَانِي أَمْسٍ أَنَّنَا تَلَقَيْنَا مِنْهُمْ ضَرْبَةً قَاصِمَةً.»

سَأَلَ ويلسون: «أَتَظُنُّ ذَلِكَ؟ أَظُنُّ أَنَّنَا عَامَلْنَاهُمْ بِمُنْتَهَى الْقَسْوَةِ أَمْسٍ..»
قَالَ هنري: «عَلَى الْإِطْلَاقِ، أَنْتَ لَمْ تَشْهَدْ شَيْئًا مِنَ الْمَعْرَكَةِ.»

فِي كُلِّ مَكَانٍ حَوْلَهُمَا كَانَ الرِّجَالُ يَلْتَفُونَ حَوْلَ النَّيْرَانِ الصَّغِيرَةِ الْآخَرَى. وَفَجْأَةً تَصَاعَدَتْ أَصْوَاتٌ حَادَّةٌ. كَانَ هُنَاكَ جُنْدِيَّانِ يَضْحَكَانِ مِنْ رَجُلٍ ضَخَمِ الْجُنَّةِ مُلْتَحٍ حَتَّى ثَارَتْ ثَائِرَتُهُ، وَبَدَأَ أَنْ شَجَارًا سَيَقُوعُ.

وَقَفَّ ويلسون وَفَرَّقَ بَيْنَ الرِّجَالِ الثَّلَاثَةِ.

قَالَ: «مَا جَدَوِي ذَلِكَ يَا رِجَالُ؟ سَنَوَاجِهُ الْعَدُوَّ بَعْدَ أَقَلِّ مِنْ سَاعَةٍ، فَلِمَاذَا يُقَاتِلُ بَعْضُنَا بَعْضًا؟»

ذَكَرَ أَحَدُ الْجُنُودِ ويلسون بِالشُّجَارِ الَّذِي دَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جُنْدِيٍّ آخَرَ مُنْذُ بَضْعَةِ أَيَّامٍ وَأَنَّهُ خَسِرَ.

قَالَ الْجُنْدِيُّ: «أَنْتَ لَا تُحِبُّ الشُّجَارَ مُنْذُ أَنْ خَسِرْتَ تِلْكَ الْمَرَّةَ، ثُمَّ إِنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِكَ.»

أَخِيرًا، هَذَا الرِّجَالُ، وَعَادَ ويلسون إِلَى مَكَانِهِ، وَسُرِعَانَ مَا عَادَ الْجُنُودُ يَمَارِحُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَأَنَّهُمْ أَصْدِقَاءُ قَدَامَى.

قَالَ ويلسون: «أَكْرَهُ رُؤْيَا الْجُنُودِ يَتَشَاوَرُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ.»

ضَحِكَ هِنْرِي، وَقَالَ: «لَقَدْ تَغَيَّرَتْ كَثِيرًا يَا وَيْلَسُون. إِنِّي أَتَذَكَّرُكَ عِنْدَمَا كُنْتُ مُسْتَعِدًّا
لِلشَّجَارِ حَتَّى مِنْ دُونِ تَفَكُّيرٍ.»
قَالَ وَيْلَسُون: «أَظُنُّ أَنِّي كُنْتُ كَذَلِكَ.»
بَعْدَ دَقِيقَةٍ قَالَ هِنْرِي: «أَعْتَذِرُ لَوْ سَبَّبْتُ لَكَ حَرْجًا.»
قَالَ وَيْلَسُون: «لَا تَشْغَلْ بِأَلَاكَ يَا هِنْرِي.» ثُمَّ فَكَّرَ قَلِيلًا وَقَالَ: «ظَنَنَّا أَنَّ الْكُتَيْبَةَ
فَقَدَتْ أَكْثَرَ مَنْ نِصْفِ رِجَالِهَا أَمْسَ. ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ جَمِيعًا قُتِلُوا، لَكِنَّهُمْ ظَلُّوا يَعُودُونَ اللَّيْلَةَ
الْمَاضِيَةَ حَتَّى بَدَأْنَا لَمْ نَفْقِدْ سِوَى قَلِيلِينَ. كَانُوا مُنْتَشِرِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَقَاتِلُونَ مَعَ
الْكَتَائِبِ الْآخَرَى تَمَامًا مِثْلَمَا فَعَلْتَ أَنْتَ.»
سَأَلَ هِنْرِي: «حَقًّا؟!»

الفصل الثامن عشر

الخطاب

كَانَ الْجُنُودُ يَقْفُونَ فِي وَضْعٍ انْتِبَاهٍ عَلَى جَانِبِ أَحَدِ الطَّرِيقِ يَنْتَظِرُونَ الْأَمْرَ بِالتَّقَدُّمِ، وَفَجْأَةً تَذَكَّرَ هنري الطَّرْدَ الصَّغِيرَ الْمَلْفُوفَ دَاخِلَ مَظْرُوفٍ أَصْفَرَ بَاهِتٍ الَّذِي أَعْطَاهُ لَهُ وَيَلْسُون مِنْ قَبْلُ.

نَادَى هنري عَلَى صَدِيقِهِ: «ويلسون!»

— «مَاذَا؟»

كَانَ وَيَلْسُون يُحَدِّقُ فِي الطَّرِيقِ، وَلَسَبَّ غَرِيبٍ ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهِ نَظْرَةٌ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ جَعَلَتْهُ يَبْدُو خَائِفًا لِلْغَايَةِ. شَعَرَ هنري أَنَّ عَلَيْهِ تَغْيِيرَ الْمَوْضُوعِ.

قَالَ هنري: «لَا شَيْءَ.»

قَرَّرَ هنري أَلَّا يُذَكِّرُهُ بِهَذَا الْيَوْمِ الَّذِي أَعْطَاهُ فِيهِ وَيَلْسُون الْمَظْرُوفَ عِنْدَمَا كَانَ خَائِفًا وَعَلَى يَقِينٍ أَنَّهُ سَيَلْقَى حَتْفَهُ. تَذَكَّرَهُ بِلَحْظَةِ الْخَوْفِ هَذِهِ سَيَكُونُ فِعْلًا وَضِيعًا.

اعْتَادَ هنري الْخَوْفَ مِنْ وَيَلْسُون لِأَنَّهُ سَرِيعُ الْغَضَبِ، أَمَّا الْآنَ فَقَدْ خَطَرَتْ عَلَى بَالِ هنري خُطَّةٌ جَدِيدَةٌ؛ إِذَا سَأَلَهُ وَيَلْسُون عَمَّا حَدَثَ فِعْلًا أَمْسَ — إِذَا اكْتَشَفَ أَنَّ هنري قَدْ فَرَّ مِنَ الْمَعْرَكَةِ — فَسَوْفَ يُخْرِجُ هنري الْمَظْرُوفَ الصَّغِيرَ وَيُذَكِّرُهُ كَمَا كَانَ مَذْعُورًا. هَذَا الْخُطَابُ سِلَاحٌ فِي يَدِ هنري يُمْكِنُهُ اسْتِخْدَامُهُ لِيَحْمِيَ نَفْسَهُ مِنْ سُخْرِيَةِ الْآخَرِينَ.

فِي لَحْظَةٍ ضَعْفٍ نَادِرَةٍ، تَحَدَّثَ وَيَلْسُون عَنِ الْمَوْتِ وَهُوَ يَرْتَجِفُ، وَأَعْطَاهُ الْمَظْرُوفَ الَّذِي يَحْتَوِي بِالتَّأَكُّيدِ عَلَى تَذْكَارٍ لِأَقَارِبِهِ. شَعَرَ هنري الْآنَ أَنَّهُ أَفْضَلُ حَالًا مِنْ صَدِيقِهِ، بَلْ إِنَّهُ شَعَرَ بِالْأَسَى عَلَيْهِ.

استَعَادَ هنري اعتزازه بنفسه. صحيح أنه ارتكب أخطاءً، لكن لن يعلم عنها أحد شيئاً. إنه لا يزال رجلاً في أعين الآخرين. لم يفكر هنري في المعارك الوشيكة، ولم يكن بحاجة للتفكير في كيفية التعامل معها. لقد تعلم أمس أنه لن يحاسب لو تخلّى عن أداء واجبه.

إلى جانب ذلك، كان هنري يشعر بالثقة؛ إنه الآن أكثر إيماناً بنفسه وأكثر خبرة من ذي قبل. لقد تعرّض للمخاطر ورأى أسوأ ما يمكن أن يرى، والآن يظن أن ما حدث لم يكن بهذا السوء.

فكر هنري كيف يقتلون في حين أنه كان واضحاً أنهم اختاروه لعظم شأنه؟ وإلا، فكيف استطاع النجاة من كل ما تعرّض له؟

تذكّر هنري كيف لاذ آخرون بالفرار من المعركة. وعندما فكر في وجوهم التي كان يملؤها الذعر، شعر أنه ليس مثلهم، لقد كانوا ضعفاء وفرّوا بسرعة بالغية أمام أعين الجميع، بينما فرّ هو بكيّ رياء دون أن يراه أحد.

سعل ولسون بصوت عالٍ، فأفاق هنري من أحلام يقظته.

قال ولسون: «هنري!»

ردّ هنري: «ماذا هناك؟»

سعل ولسون مرّة أخرى، وظلّ يتحرّك هنا وهناك كأن شيئاً ما يؤرّقه. وأخيراً، قال ووجهه مكسوّ بحمرة الخجل: «يمكنك أن تُعيد لي الخطاب.»

قال هنري بعد لحظات: «حسناً يا ولسون.»

فتح هنري سترته، وأخرج الخطاب من جيبه الداخلي، وأعطاه لوليسون الذي كان خجلاً، حتى إنه لم يستطع النظر إلى هنري.

كان هنري يتوانى في تلك الأثناء؛ لأنه كان يفكر في شيء يقوله بشأن الخطاب، لكنه لم يجد ما يقول، ولهذا قرّر أن يكون دمثاً مع صديقه ولا يسخر منه.

بعد ذلك فكر هنري مرّة أخرى في المعارك التي شهدّها حتى الآن. كان موقناً أن بإمكانه الآن العودة إلى دياره وإشعال حماس الآخرين بحكاياته عن الحرب. تخيل هنري نفسه في غرفة يزوي القصص على المستمعين، ورأى جمهوره وهم يتخيلونه بطلاً في كل اللحظات الملتهبة.

الفصل التاسع عشر

التَّحَرُّكُ

صَارَتِ الْمَعَارِكُ غَرِيبَةً الطَّابِعِ مَلَمَحًا لِهَذِهِ الْبُقْعَةِ مِنَ الْعَالَمِ؛ فَذَايِمًا تُسْمَعُ أَصْوَاتُ الْقَصْفِ وَهَدِيرُ الْمَدَافِعِ الْمَكْتُومِ فِي الْأُفُقِ.

صَدَرَ الْأَمْرُ لِكَتِيبَةِ هَنري أَنْ تَحُلَّ مَحَلَّ كَتِيبَةٍ أُخْرَى ظَلَّتْ قَابِعَةً فَتْرَةً طَوِيلَةً دَاخِلَ بَعْضِ الْخَنَادِقِ الرَّطْبَةِ. أَحَاطَتْ أَصْوَاتُ الْقِتَالِ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَانْبَعَثَ الضَّجِيجُ مِنَ الْغَابَةِ أَمَامَهُمْ مُبَاشَرَةً وَعَلَى يَسَارِهِمْ، بَيْنَمَا زَادَتْ الْأَصْوَاتُ عَلَى يَمِينِهِمْ سُوءًا كُلَّ دَقِيقَةٍ، وَسُرْعَانَ مَا تَعَذَّرَ سَمَاعُ صَوْتِ أَحَدٍ.

أَرَادَ هَنري أَنْ يُمَارِحَ رِفَاقَهُ، لَكِنْ لَمْ يَسْمَعْهُ أَحَدٌ. أَخِيرًا تَوَقَّفَتْ أَصْوَاتُ الطَّلَقَاتِ وَبَدَأَتْ الشَّائِعَاتُ تَسْرِي بَيْنَ الرِّجَالِ مِنْ جَدِيدٍ. تَحَدَّثَ الْجُنُودُ عَنِ الْمَعَارِكِ الْأُخْرَى وَالْكَوَارِثِ الَّتِي نَجَوْا مِنْهَا.

وَعِنْدَمَا انْطَلَقَتْ أَصْوَاتُ الْمَدَافِعِ مِنْ جَدِيدٍ، بَدَأَ الْبُؤْسُ عَلَى وُجُوهِ الْجُنُودِ وَبَدَءُوا يُغْمَغِمُونَ، وَكَأَنَّ لِسَانَ حَالِهِمْ يَقُولُ: «مَا الَّذِي يُمَكِّنُنَا فِعْلُهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ؟» سَمِعُوا شَائِعَاتٍ أَنَّ جَيْشَهُمْ كَانَ يَخْسِرُ الْحَرْبَ.

قَبْلَ أَنْ يَنْقَشِعَ الضَّبَابُ، تَقَدَّمَتِ الْكَتِيبَةُ بِحَذَرٍ دَاخِلَ الْغَابَاتِ. كَانَ رِجَالُ الْعَدُوِّ يُشَاهِدُونَ أَحْيَانًا وَهُمْ يُسْرِعُونَ وَسَطَ الْأَشْجَارِ وَالْحُقُولِ الصَّغِيرَةِ، وَكَانُوا يَصِيحُونَ مُتَحَمِّسِينَ سُعْدَاءَ.

عِنْدَمَا رَأَى هَنري ذَلِكَ، تَمَلَّكَهُ الْغَضَبُ، وَصَاحَ: «إِنَّنَا خَاضِعُونَ لِسَيِّطَرَةِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْحَمَقَى!»

قَالَ أَحَدُ رِفَاقِهِ: «كَثِيرُونَ قَالُوا هَذَا الْكَلَامَ الْيَوْمَ.»

بَدَأَ هُنْرِي يَشْكُو بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ مِنْ قَائِدِ الْجَيْشِ، لَكِنَّهُ وَيْلَسُونُ أَوْقَفَهُ.
قَالَ بِصَوْتٍ مُرْهَقٍ: «لَا أَعْتَقِدُ أَنَّهُ مُخْطِئٌ يَا هُنْرِي. لَقَدْ بَدَّلَ مَا فِي وَسْعِهِ، وَمِنْ سُوءِ
حَظِّنَا أَنْ نَخْسَرَ الْحَرْبَ..»
قَالَ هُنْرِي بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ: «أَلَمْ نُحَارِبْ كَالشَّيَاطِينِ؟ أَلَمْ نَفْعَلْ كُلَّ مَا بِاسْتِطَاعَةٍ
الرِّجَالِ فِعْلُهُ؟»

شَعَرَ هُنْرِي بِدَهْشَةٍ خَفِيَّةٍ مِمَّا قَالَهُ. شَعَرَ بِالذَّنْبِ لَحْظَةً، لَكِنْ لَمْ يُشَكِّكَ أَحَدٌ فِي
حَقِّهِ لِأَنَّهُ يَتَحَدَّثُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَسُرْعَانَ مَا عَادَتْ إِلَيْهِ شَجَاعَتُهُ.
قَالَ وَيْلَسُونُ: «لَنْ يَقُولَ أَحَدٌ إِنَّنَا لَمْ نُحَارِبْ بِضَرَاوَةٍ، لَكِنَّ الْحِظَّ لَمْ يَكُنْ حَلِيفَنَا.»
قَالَ هُنْرِي: «حَسَنًا إِذَنْ، إِنْ كُنَّا قَدْ قَاتَلْنَا جَيِّدًا هَكَذَا، فَلَا بُدَّ أَنَّهُ خَطَا الْجِنْرَالُ. لَا
أَرَى أَيَّ مَنَاطِقٍ فِي أَنْ نُحَارِبَ طِيلَةَ الْوَقْتِ وَنَخْسَرَ دَائِمًا بِسَبَبِ حِمَاقَتِهِ.»
قَالَ رَجُلٌ كَانَ يَسِيرُ بِجَوَارِهِ: «لَعَلَّكَ تَظُنُّ أَنَّكَ حَارَبْتَ جَيْشَ الْعَدُوِّ بِأَكْمَلِهِ أَمْسٍ يَا
هُنْرِي.»

عِنْدَهَا صَمَتَ هُنْرِي. كَانَ يَخْشَى أَنْ يَسْأَلَهُ الْآخَرُونَ عَنْ مَزِيدٍ مِنَ التَّفَاصِيلِ حَوْلَ
مَا حَدَثَ لَهُ فِي الْيَوْمِ السَّابِقِ. لَمْ يَرِدْ لَفَتْ الْإِنْتِبَاهِ إِلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.
فِي النِّهَايَةِ، تَوَقَّفَتِ الْكُتَيْبَةُ فِي مَكَانٍ خَالٍ تُحِيطُ بِهِمْ أَصْوَاتُ الْمَعْرَكَةِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.
تَذَمَّرَ هُنْرِي قَائِلًا: «دَائِمًا نَطَارِدُ كَالْفِرَّانِ. لَا أَحَدٌ يَعْلَمُ إِلَى أَيْنَ أَوْ لِمَاذَا نَتَحَرَّكُ.
فَقَطُّ يُحَرِّكُونَنَا هُنَا وَهُنَاكَ. الْآنَ لَدَى الْعَدُوِّ كُلُّ الْوَقْتِ لِلِاسْتِعْدَادِ لَنَا، وَنَحْنُ قَدْ وَصَلْنَا
لِلتَّو. لَا تُحَدِّثْنِي عَنْ سُوءِ الْحِظِّ، فَأَنَا أَعْلَمُ مِنْكَ. إِنَّهُ هَذَا الْعَجُوزُ اللَّعِينُ ...»
قَاطَعَهُ وَيْلَسُونُ وَقَالَ لَهُ بِصَوْتٍ هَادِيٍّ وَاثِقٍ: «سَيَكُونُ كُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ فِي
النِّهَايَةِ.»

اكْتَمَلَ طُلُوعُ النَّهَارِ، وَأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ بِكَامِلِ أَشْعَتِهَا عَلَى الْغَابَةِ. انْطَلَقَتْ إِحْدَى
الطَّلَقَاتِ فِي الْغَابَةِ أَمَامَ الْكُتَيْبَةِ، وَأَعْقَبَتْهَا عِدَّةٌ طَلَقَاتٍ بَعْدَ أَقَلِّ مِنْ دَقِيقَةٍ. اجْتَاكَتِ
الْغَابَاتِ جَلْبَةً مُدَوِيَّةً مِنَ الْإِسْتِبَاكَاتِ وَالصَّرَاعَاتِ، وَأَصْبَحَ ضَجِيجُ الْمَعْرَكَةِ رَعْدًا مَلِيًّا
بِانْفِجَازَاتٍ مُمَدَّدَةٍ.

انتَظَرَ أَفْرَادُ الْكُتَيْبَةِ. كَانُوا مُنْهَكِينَ وَلَمْ يَأْخُذُوا قِسْطًا كَافِيًا مِنَ النَّوْمِ، فَضَلَّ عَنْ
أَنَّهُمْ عَمِلُوا كَثِيرًا. نَظَرُوا نَحْوَ الْمَعْرَكَةِ الْوَشِيقَةِ، وَانتَظَرُوا الصَّدْمَةَ. ارْتَدَّ بَعْضُهُمْ إِلَى
الْوَرَاءِ قَلِيلًا خَوْفًا مِنَ الْأَصْوَاتِ، بَيْنَمَا ثَبَتَ الْبَاقُونَ فِي أَمَاكِنِهِمْ.

الفصل العشرون

بَطْلُ حَقِيقِي

عِنْدَمَا رَأَى هِنْرِي الْعَدُوَّ يَتَّجِهَ نَحْوَهُمْ، انْتَابَتْهُ نُوبَةٌ غَضَبٍ مُفَاجِئَةٍ. ضَرَبَ الْأَرْضَ بِقَدَمَيْهِ، وَحَدَقَ فِي الدُّخَانِ الْمُتَصَاعِدِ وَالْمُقْتَرِبِ بِنَظَرَةٍ مَلُؤَهَا الْكَرَاهِيَةُ. شَعَرَ بِالْغَضَبِ لِأَنَّ الْعَدُوَّ لَمْ يَتْرَكْهُ يَسْتَرِيحُ، وَلَنْ يُعْطِيَهُ أَيَّ وَقْتٍ لِلْجُلُوسِ وَالتَّفَكُّيرِ. حَارَبَ هِنْرِي أَمْسَ، وَفَرَّ سَرِيعًا. لَقَدْ خَاضَ عِدَّةَ مُغَامَرَاتٍ، وَشَعَرَ أَنَّ مِنْ حَقِّهِ الْحُصُولَ عَلَى قِسْطٍ مِنَ الرَّاحَةِ. كَانَ مُزْهِقًا لِلْغَايَةِ.

لَكِنْ يَبْدُو أَنَّ الرِّجَالَ الْآخَرِينَ لَا يَكْلُونُ، وَكَانَ هِنْرِي يُكِنُّ لَهُمْ كَرَاهِيَةً بِالْغَةِ. لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ أَنْ يُطَارَدَ بَعْدَ الْآنِ. انْحَنَى خَلْفَ شَجَرَةٍ صَغِيرَةٍ، وَصَرَ عَلَى أَسْنَانِهِ. لَا تَزَالُ الْعِصَابَةُ مَرْبُوطَةً حَوْلَ رَأْسِهِ، وَبِهَا بُقْعَةٌ صَغِيرَةٌ مِنَ الدَّمَاءِ. كَانَ شَعْرُهُ أَشْعَثَ يَتَدَلَّى فَوْقَ الْعِصَابَةِ مُغَطِّيًا جَبِينَهُ. وَكَانَتْ أَزْرَارُ سِتْرَتِهِ وَقَمِيصِهِ مَفْتُوحَةً عِنْدَ الْعُنُقِ، وَأَصَابِعُهُ مُلْتَفَّةٌ فِي تَوْتُرٍ حَوْلَ بُنْدُقِيَّتِهِ. شَعَرَ أَنَّ الْعَدُوَّ يُهَيِّنُهُ هُوَ وَأَصْدِقَاءَهُ. كَانُوا يُعَامِلُونَ وَكَأَنَّهُمْ ضِعَافٌ أَذِلَّاءُ، وَأَرَادَ أَنْ يَتَّارَ لِذَلِكَ. أَرَادَ أَنْ يَهْزِمَهُمْ.

انْطَلَقَتْ أَمَامَهُمْ إِحْدَى الطَّلَقَاتِ النَّارِيَةِ، وَعَلَى الْفُورِ تَبِعَتْهَا طَلَقَاتٌ أُخْرَى. وَبَعْدَ قَلِيلٍ بَدَأَتْ كَتِيبَتُهُ تَطْلُقُ النَّيْرَانَ. اسْتَقَرَّ حَاجِزٌ كَثِيفٌ مِنَ الدُّخَانِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ. كَانَ هِنْرِي يُحَارِبُ بِبَسَالَةٍ، بَلْ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعِي أَنَّهُ وَقِفٌ. وَحِينَمَا فَقَدَ تَوَازُنَهُ وَسَقَطَ أَرْضًا، هَبَّ وَاقِفًا عَلَى الْفُورِ. ارْتَفَعَتْ حَرَارَةُ أُسْطُوَانَةِ بُنْدُقِيَّتِهِ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَتَحَمَّلَهَا فِي أَيِّ يَوْمٍ آخَرَ، لَكِنَّهُ اسْتَمَرَّ فِي إِطْلَاقِ النَّيْرَانِ الْيَوْمَ.

ظَلَّ يُقَاتِلُ وَيُطْلِقُ النِّيرَانَ مِنْ بُنْدُقِيَّتِهِ حَتَّى بَعْدَ تَوَقُّفِ الْجَمِيعِ. كَانَ كُلُّ تَرْكِيزِهِ مُنْصَبًّا عَلَى الْقِتَالِ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَلْحَظِ الْهُدُوءَ الَّذِي سَادَ الْمَكَانَ. وَأَخِيرًا سَمِعَ ضَحِكَةً عَالِيَةً وَصَوْتًا بَدَتْ عَلَيْهِ الدَّهْشَةُ.

صَاحَ أَحَدُ الْجُنُودِ: «أَيُّهَا الْأَحْمَقُ! أَلَمْ تَتَعَلَّمْ أَنَّ تَوْقِفَ الضَّرْبِ عِنْدَمَا لَا يَكُونُ هُنَاكَ مَا تَصُوبُ تَجَاهَهُ؟»

الْتَفَتَ هنري ونَظَرَ إِلَى رِفَاقِهِ. كَانُوا جَمِيعًا يُحَدِّقُونَ فِيهِ فِي دَهْشَةٍ. وَعِنْدَمَا نَظَرَ إِلَى الْأَمَامِ مَرَّةً أُخْرَى، رَأَى أَرْضًا خَالِيَةً يَغْلُوهَا الدُّخَانُ. بَدَأَ عَلَيْهِ الْإِرْتِبَاكُ لَحْظَةً، ثُمَّ انْتَبَهَ إِلَى مَا كَانَ يَرَى.

قَالَ هنري: «أوه».

عَادَ هنري إِلَى أَصْدِقَائِهِ وَالْقَى بِثِقَلِهِ عَلَى الْأَرْضِ. كَانَ الْمَلَاذِمُ يَصِيحُ فِي حِمَاسٍ، وَقَالَ لهنري: «لَوْ كَانَ لَدَيَّ عَشْرَةُ آلَافٍ قِطْعٍ بَرِّيِّ مِثْلِكَ، لَرَبِحْتُ هَذِهِ الْحَرْبَ فِي أُسْبُوعٍ وَاحِدٍ».

غَمَغَمَ بَعْضُ الْجُنُودِ، وَنَظَرُوا إِلَى هنري فِي دَهْشَةٍ. تَقَدَّمَ وَيَلْسُونُ نَحْوَهُ وَسَأَلُوهُ: «هَلْ أَنْتَ بِخَيْرٍ يَا فليمنج؟ أَكُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا يَرَامُ؟ أَلَمْ يُصِيبْكَ مَكْرُوهٌ؟» رَدَّ هنري فِي صُعُوبَةٍ: «كَلَّا».

أَدْرَكَ هنري أَنَّهُ كَانَ يُحَارِبُ كَالْحَيَوَانَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ صَعْبًا. لَقَدْ بَدَلَ جُهْدًا لِيَتَغَلَّبَ عَلَى خَوْفِهِ، وَالآنَ أَصْبَحَ يَسْتَحِقُّ لِقَبِّ الْبَطْلِ. إِنَّهُ حَتَّى لَمْ يَلْحَظْ حُدُوثَ ذَلِكَ. تَمَدَّدَ هنري عَلَى الْأَرْضِ، وَأَخَذَ يَسْتَمْتِعُ بِنَظَرَاتِ الْأَخْرَيْنَ لَهُ مِنْ وَقْتٍ لآخر. كَانَتْ وُجُوهُهُمْ مُتَسَخِّةً مِنْ أَثَرِ الْبَارُودِ. كَانُوا يَتَصَبَّبُونَ عَرَقًا، وَيَتَنَفَّسُونَ بِصُعُوبَةٍ.

قَالَ الْمَلَاذِمُ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ: «أَحْسَنْتُمْ!» كَانَ سَعِيدًا لِلْغَايَةِ بِأَدَاءِ الْكُتَيْبَةِ، وَأَخَذَ يَسِيرُ بَيْنَهُمْ ذَهَابًا وَإِيَابًا. كَانَ دَائِمَ الْحَرَكَةِ مُتَحَمِّسًا، بَلْ كَانَ يَضْحَكُ أحيانًا.

قَالَ أَحَدُ الْجُنُودِ: «أَرَاهُنَّ أَنَّ الْجَيْشَ لَنْ يَرَى كُتَيْبَةً مِثْلَنَا أَبَدًا!»

قَالَ آخَرُ: «مَنْ دُونَ شَكٍّ!»

وَقَالَ ثَالِثُ: «كُلَّمَا ضَغَطُوا عَلَيْنَا، أَخْرَجُوا أَفْضَلَ مَا لَدَيْنَا».

قَالَ آخَرُ: «لَقَدْ فَقَدُوا رِجَالًا كَثِيرِينَ».

رَدَّ آخَرُ: «هَذَا صَحِيحٌ، وَلَوْ عَادُوا مَرَّةً أُخْرَى لَفَقَدُوا الْمَزِيدَ».

بَطْلُ حَقِيقِي

كَانَ لَا يَزَالُ هُنَاكَ ضَجِيجٌ فِي الْغَابَةِ. وَمِنْ بَعِيدٍ بَيْنَ الْأَشْجَارِ جَاءَ صَوْتُ قَعْقَعَةِ
إِطْلَاقِ النَّيِّرَانِ. تَصَاعَدَتْ غَيَمَةٌ دَاكِنَةٌ مِنَ الدُّخَانِ إِلَى السَّمَاءِ بِاتِّجَاهِ الشَّمْسِ الَّتِي كَانَتْ
تُشْرِقُ وَسَطَ السَّمَاءِ الزُّرْقَاءِ.

الفصل الحادي والعشرون

حوار

كَانَ أَمَامَ الْجُنُودِ غَيْرِ الْمُنْظَمِينَ دَفَائِقُ قَلِيلَةٍ لِيَسْتَرِيحُوا، لَكِنْ تَعَالَتْ أَصْوَاتُ الْقِتَالِ فِي الْغَايَةِ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ. بَدَأَ وَكَأَنَّ الْأَشْجَارَ تَرْتَجِفُ وَالْأَرْضُ تَهْتَزُّ مِنْ تَدَاوُعِ الرِّجَالِ. أَنْصَتَتْ كَتِيبَةُ هِنْرِي إِلَى أَصْوَاتِ الصَّخَبِ.

كَانَ الْجَمِيعُ ظُمَاءً، وَقَالَ وَيَلْسُونُ إِنَّهُ سَمِعَ عَنْ جَدُولِ مَاءٍ قَرِيبٍ، وَتَطَوَّعَ لِلذَّهَابِ وَإِحْضَارِ الْمَاءِ. عَرَضَ هِنْرِي الْمُسَاعَدَةَ، وَعَلَى الْفُورِ الْقَيْتِ إِلَيْهِمْ قَرَبُ الْمِيَاهِ.

قَالَ رَجُلٌ: «أَمْلَأْ قِرْبَتِي؟»

وَقَالَ آخَرُ: «وَأَنَا أَيْضًا.»

وَقَالَ آخَرُونَ: «وَنَحْنُ أَيْضًا.»

غَادَرَ هِنْرِي وَيِلْسُونُ يَحْمِلَانِ الْعَدِيدَ مِنَ الْقَرَبِ، وَظَلًّا يَبْحَثَانِ لِبَعْضِ الْوَقْتِ، لَكِنْ عِنْدَمَا لَمْ يَجِدَا جَدُولَ الْمَاءِ، قَرَّرَا الْعُودَةَ.

وَمِنْ مَكَانِهِمَا، اسْتَطَاعَا رُؤْيَا صُورَةٍ أَوْضَحَ لِمَيِّدَانِ الْمَعْرَكَةِ عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي كَانَا فِيهِ مَعَ كَتِيبَتَيْهِمَا. اسْتَطَاعَا رُؤْيَا الْعَدِيدِ مِنْ سُحْبِ الدُّخَانِ الدَّاكِنَةِ حَيْثُ تَحَارَبُ الْكَتَائِبُ الْأُخْرَى، وَاسْتَطَاعَا أَيْضًا رُؤْيَا جُزْءٍ مِنْ مَنْزِلٍ فِيمَا وَرَاءَ الْأَشْجَارِ يَحْتَرِقُ وَيَتَصَاعَدُ مِنْهُ الدُّخَانُ إِلَى السَّمَاءِ، وَرَأَى كَتِيبَتَيْهِمَا. كَانَ التُّلُّ خَلْفَهُمَا مُكْتَظًا بِالْكَتَائِبِ الْمُتَقَهِّقَةِ.

نَظَرَ هِنْرِي وَيِلْسُونُ إِلَى الْغَايَةِ الْقَرِيبَةِ مِنْهُمَا، فَوَجَدَا جَنْرَالًا وَمَعَهُ مُسَاعِدُوهُ يَمْتَلِطُونَ جِيَادَهُمْ. مَرُّوا عَلَى جُنْدِيٍّ جَرِيحٍ دُونَ أَنْ يَتَوَقَّفُوا. وَبَعْدَ لَحْظَةٍ تَوَجَّهَ ضَابِطٌ آخَرٌ عَلَى جَوَادِهِ نَحْوَ الْجَنْرَالِ. يَبْدُو أَنَّ أَحَدًا لَمْ يَلْمَحْ هِنْرِي وَصَدِيقَهُ؛ وَلِذَا ظَلَّ قَرِيبَيْنِ يُحَاوِلَانِ الْإِسْتِمَاعَ لِمَا يَقُولُهُ الْجَنْرَالُ.

قَالَ الْجِنْرَالُ: «تَسْتَعِدُّ قُوَّاتُ الْعَدُوِّ هُنَاكَ لِشَنْ هُجُومٍ آخَرَ». كَانَ يَتَحَدَّثُ فِي هُدُوءٍ وَكَأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ عَنْ مَلَابِيسِ الضَّابِطِ. «أَخْشَى أَنَّهُمْ سَيَخْتَرِقُونَ صُفُوفَنَا مَا لَمْ نَتَحَرَّكَ كَالرَّعْدِ لِإِيْقَافِهِمْ».

قَالَ الضَّابِطُ غَاضِبًا: «مِنْ الصَّعْبِ التَّصَدِّي لَهُمْ».

قَالَ الْجِنْرَالُ: «هَذَا مَا أَتَوَقَّعُهُ أَيْضًا». ثُمَّ بَدَأَ يَتَحَدَّثُ سَرِيعًا وَبِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ مَعَ مُسَاعِدِيهِ. لَمْ يَسْمَعْ هنري وويلسون شيئًا آخَرَ إِلَى أَنْ سَأَلَ الْجِنْرَالُ الضَّابِطَ: «أَيُّ الْكَتَائِبِ يُمَكِّنُكَ الْإِسْتِغْنَاءُ عَنْهَا؟»

فَكَرَّرَ الضَّابِطُ ثُمَّ قَالَ: «الْكَتِيبَةُ رَقْمُ ٣٠٤. إِنَّهُمْ عَدِيمُو الْجَدْوَى، يُحَارِبُونَ وَكَأَنَّهُمْ يَمْتَلِطُونَ بَغْلًا. يُمَكِّنُنِي الْإِسْتِغْنَاءُ عَنْهُمْ بِسُهُولَةٍ».

نَظَرَ هنري وويلسون أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ فِي دَهْشَةٍ: فَالْكَتِيبَةُ رَقْمُ ٣٠٤ هِيَ كَتِيبَتُهُمَا. وَتَحَدَّثَ الْجِنْرَالُ بَعْدَهَا بِحِدَّةٍ: «جَهِّزْ تِلْكَ الْكَتِيبَةَ إِذْنًا. سَارَاقِبُ الْمُعْرَكَةِ مِنْ هُنَا، وَأُصِدِرُ الْأَمْرَ بِتَوْقِيتِ الْبَدْءِ. سَوْفَ يَنْتَهِي الْأَمْرُ فِي غُضُونِ خَمْسِ دَقَائِقَ. لَا أَعْتَقِدُ أَنَّ رَاكِبِي الْبُغَالِ سَيَنْجُونَ مِنْ ذَلِكَ».

ابْتَسَمَ الضَّابِطُ وَالْجِنْرَالُ وَهُمَا يَفْتَرِقَانِ. أَسْرَعَ هنري وويلسون بِالْعُودَةِ إِلَى كَتِيبَتِهِمَا وَالذُّعْرُ يَكْسُو وَجْهَيْهِمَا. وَمَعَ أَنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَسْتَعْرِقْ سِوَى بَضْعِ دَقَائِقَ، شَعَرَ هنري وَكَأَنَّهُ تَقَدَّمَ فِي الْعُمُرِ سَنَوَاتٍ عَدِيدَةً.

أَدْرَكَ هنري أَنَّهُ لَا يَغْنِي أَيُّ شَيْءٍ لِلْجَيْشِ. تَحَدَّثَ الضَّابِطُ عَنْ كَتِيبَتِهِ وَكَأَنَّهُ يَتَحَدَّثُ عَنْ مِكَنَسَةٍ. وَعِنْدَمَا عَادَا، أَخْبَرَا الْجَمِيعَ أَنَّهُمْ سَيُهَاجِمُونَ الْعَدُوَّ فِي غُضُونِ دَقَائِقَ.

قَالَ الْمَلَاذِمُ وَقَدْ عَلَتْ وَجْهَهُ ابْتِسَامَةٌ: «هُجُومٌ؟ نَحْنُ نَقَاتِلُ الْآنَ إِذْنًا!»

رَأَى الرِّجَالُ شَخْصَيْنِ فَوْقَ صَهْوَتَي جَوَادِبِهِمَا عَلَى مَسَافَةٍ قَصِيرَةٍ؛ الْأَوَّلُ قَائِدُ الْكَتِيبَةِ، وَالثَّانِي الضَّابِطُ الَّذِي تَلَقَّى الْأَوَامِرَ مِنَ الْجِنْرَالِ. كَانَا يَتَحَدَّثَانِ أَحَدُهُمَا إِلَى الْآخَرِ، وَيُشِيرَانِ نَحْوَ الْكَتِيبَةِ.

بَدَأَ الضُّبَّاطُ فِي تَقْسِيمِ الرِّجَالِ إِلَى مَجْمُوعَاتٍ صَغِيرَةٍ. وَسُرْعَانَ مَا بَدَأَ كُلُّ فَرْدٍ فِي الْكَتِيبَةِ مَشْدُودَ الْقَامَةِ يَأْخُذُ نَفْسًا عَمِيقًا. كَانُوا يُرَاقِبُونَ الْغَابَةَ، وَأَحَاطَ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ضَجِيجُ الْمُعْرَكَةِ الْكُبْرَى بَيْنَ الْجَيْشَيْنِ. بَدَأَ سَائِرُ الْعَالَمِ مُنْشَغِلًا بِأَشْيَاءٍ أُخْرَى. وَكَانَ هَذَا الْقِتَالُ مِنْ نَصِيبِ تِلْكَ الْكَتِيبَةِ وَحْدَهَا.

نَظَرَ هَنرِي وَوَيْلسونَ أَحَدُهُمَا إِلَى الْآخَرِ. لَمْ يُخْبِرَا أَحَدًا بِالْحَدِيثِ الَّذِي دَارَ بَيْنَ
الْجُنَرَالِ وَالضَّابِطِ حَوْلَ كَتِيبَتِهِمَا، وَكَيْفَ أَنَّ حَيَاتَهُمَا لَا تُسَاوِي شَيْئًا. لَقَدْ شُبَّهُوا بِرَاكِبِي
الْبِغَالِ. لَا يَتَوَقَّعُ أَنَّهُمْ سَيَنْجُونَ مِنْ تِلْكَ الْمَوَاجَهَةِ. لَكِنَّهُ سِرٌّ بَيْنَ هَنرِي وَوَيْلسونَ، وَرَغْمَ
هَذَا فَكِلَاهُمَا يَرَى الْخَوْفَ فِي وَجْهِ الْآخَرِ. نَظَرَ أَحَدُهُمَا إِلَى الْآخَرِ وَأَوْمَأَ مُوَافَقِينَ عِنْدَمَا قَالَ
جُنْدِي بِالْقُرْبِ مِنْهُمَا بِنَبْرَةٍ خَائِفَةٍ: «سَيَلْتَهُمُونَنَا!»

الفصل الثاني والعشرون

عَلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ مِنَ الْحَقْلِ

حَدَّقَ هُنْرِي النَّظَرَ فِي الْأَرْضِ أَمَامَهُ، وَبَدَأَ لَهُ أَنَّ الْأَشْجَارَ تُخْفِي وَرَاءَهَا كُلَّ مَظَاهِرِ
الْخَوْفِ وَالرُّعْبِ. لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مَتَى بَدَأَتِ الْكُتَيْبَةُ فِي الْقِتَالِ، لَكِنَّهُ رَأَى بِطَرْفِ عَيْنِهِ أَحَدَ
الضُّبَّاطِ عَلَى جَوَادِهِ يَتَقَدَّمُ إِلَى الْأَمَامِ. فَجَاءَهُ شَعَرَ هُنْرِي بِحَرَكَةِ الْجُنُودِ، وَتَقَدَّمَتِ الْكُتَيْبَةُ
إِلَى الْأَمَامِ شَيْئًا فَشَيْئًا كَجِدَارٍ يَسْقُطُ أَرْضًا. ظَلَّ هُنْرِي وَقْتًا قَلِيلًا يَتَحَرَّكُ بِقُوَّةِ الدَّفْعِ قَبْلَ
أَنْ يَسْتَوْعِبَ الْمُوقِفَ. فَفَزَّ وَبَدَأَ يَجْرِي يَائِسًا وَكَأَنَّهُ جُنْدِيٌّ فَقَدَ عَقْلَهُ.

جَاءَتْ صَيْحَاتُ الْعَدُوِّ وَطَلَقَاتُ النَّيْرَانِ مِنْ بَيْنِ الْأَشْجَارِ. كَانَ الْجُنُودُ يَتَسَاقَطُونَ
حَوْلَ هُنْرِي. وَسُرْعَانَ مَا وَصَلَتِ الْكُتَيْبَةُ إِلَى مَنَاطِقَةٍ خَالِيَةٍ مِنَ الْأَشْجَارِ حَيْثُ اسْتَطَاعَ
هُنْرِي أَنْ يَرَى بوضوحٍ أَكْبَرَ كُلِّ شَيْءٍ؛ كُلَّ وَرَقَةٍ نَبَاتٍ، وَكُلَّ جَذْعٍ شَجَرَةٍ بُنْيٍ، وَوُجُوهَ
الْجُنُودِ بِنَظَرَاتِهِمُ الْمُحْدِقَةِ وَوُجُوهَهُمُ الَّتِي كَانَتْ تَتَصَبَّبُ عَرَقًا.

بَعْدَ الْجَرْيِ مَسَافَةً بَدَتْ وَكَأَنَهَا أُمِّيَالٌ، أَبْطَأَتِ الْكُتَيْبَةُ ثُمَّ تَوَقَّفَتْ. وَعِنْدَهَا عَلَى الْفُورِ
تَعَالَتْ أَصْوَاتُ النَّيْرَانِ الْبَعِيدَةِ وَانْتَشَرَ الدُّخَانُ الْكَثِيفُ حَوْلَهُمْ.

اسْتَطَاعَ الْجُنُودُ بَعْدَ أَنْ تَوَقَّفُوا أَنْ يَرَوْا الرِّجَالَ الَّذِينَ سَقَطُوا قَتْلَى، أَوْ الْجَرَحَى
الَّذِينَ كَانُوا يَتَأَلَّمُونَ. وَلِلْحَلْظَةِ بَدَأَ الْجُنُودُ فِي حَالَةِ ذُهُولٍ غَيْرِ قَادِرِينَ عَلَى الْحَرَكََةِ. كَانَ
التَّوَقُّفُ غَرِيبًا وَالصَّمْتُ غَرِيبًا أَيْضًا. بَعْدَهَا صَاحَ الْمُلَازِمُ حَتَّى تَعَالَى صَوْتُهُ عَلَى كُلِّ
الْأَصْوَاتِ الْأُخْرَى: «هَيَّا أَيُّهَا الْحَمَقَى! هَيَّا! لَا يُمْكِنُكُمُ الْبَقَاءُ هُنَا. وَاصِلُوا التَّحَرُّك!» وَزَادَ
عَلَيْهِ كَلَامًا آخَرَ، لَكِنْ مُعْظَمُهُ لَمْ يَكُنْ مَفْهُومًا.

حَدَّقَ الْجُنُودُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَصْرُخُ، وَأَخِيرًا قَفَزَ وَيَلْسُونَ إِلَى الْأَمَامِ وَنَزَلَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَأَطْلَقَ نِيرَانَ بُدْقِيَّتِهِ فِي الْعَابَةِ. بَدَأَ أَنَّ هَذَا أَفَاقَ الْجُنُودَ فَتَوَقَّفُوا عَنِ التَّجْمُهْرِ كَقَطِيعِ الْأَغْنَامِ. بَدَأَ أَنَّهُمْ تَذَكَّرُوا أَسْلِحَتَهُمْ، وَبَدَءُوا يُطْلِقُونَ النَّارَ فَجَاءَتْ. وَبِتَشْجِيعٍ مِنَ الضُّبَّاطِ، بَدَأَ الْجُنُودُ يَتَقَدَّمُونَ إِلَى الْأَمَامِ رُوَيْدًا رُوَيْدًا، يَتَوَقَّفُونَ كُلَّ بَضْعٍ خُطَوَاتٍ لِيُطْلِقُوا النَّارَ وَيُعِيدُوا تَعْبِيَةَ أَسْلِحَتِهِمْ.

كَانَ الْعُدُوُّ يُقَاتِلُ بِضَرَاوَةٍ لِيَمْنَعَ الْكُتَيْبَةَ مِنَ التَّقَدُّمِ، وَبَدَأَ أَنَّ الْكُتَيْبَةَ لَا تَسْتَطِيعُ التَّقَدُّمَ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا. انْحَنَى الرَّجَالُ خَلْفَ بَعْضِ الْأَشْجَارِ وَانْتَظَرُوا كَأَنَّ شَيْئًا يَهْدِدُهُمْ. نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فِي دُخَانِ مَذْهُولِينَ مِمَّا فَعَلُوا. كَانَ الْمَوْقِفُ بِرُمَّتِهِ مُرَبِّكًا لِلْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ.

وَمَا إِنَّ تَوَقَّفُوا حَتَّى بَدَأَ الْمُلَازِمُ يَصْرُخُ فِيهِمْ مَرَّةً أُخْرَى. أَمْسَكَ بِذِرَاعِ هنري، وصاح: «هَيَّا أَيُّهَا الْأَحْمَقُ! سَوْفَ يُطْلِقُونَ النَّارَ عَلَيْنَا لَوْ بَقِينَا هُنَا. لَيْسَ أَمَامَنَا سِوَى عُبُورِ هَذَا الْحَقْلِ هُنَاكَ.»

أَشَارَ هنري قَائِلًا: «عُبُورُ هَذَا؟»

صَاحَ الضُّبَّاطُ: «نَعَمْ، اغْبُرُوا هَذَا الْحَقْلَ! لَا يُمْكِنُنَا الْبَقَاءُ هُنَا. هَيَّا!»

جَرَى الْإِثْنَانِ مَعًا وَخَلَفَهُمَا وَيَلْسُونَ. وَصَرَخَ الرَّجَالُ الثَّلَاثَةُ فِي الْجُنُودِ: «هَيَّا! هَيَّا!» تَرَدَّدَ أَفْرَادُ الْكُتَيْبَةِ هُنَيْهَةً، وَمَعَ إِحْدَى الصَّرَخَاتِ الطَّوِيلَةِ رَكَّضُوا إِلَى الْأَمَامِ وَبَدَءُوا رِحْلَتَهُمُ الْجَدِيدَةَ، بَيْنَمَا تَحَرَّكَ عَدَدٌ قَلِيلٌ مِمَّنْ تَبَقَّى مِنَ الْكُتَيْبَةِ قَرِيبًا مِنَ الْعُدُوِّ. زَادَتْ سُرْعَةُ إِطْلَاقِ النِّيرَانِ، وَانْتَشَرَتْ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ سَحَابَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الدُّخَانِ الْأَزْرَقِ.

أَسْرَعَ هنري نَحْوَ الْعَابَةِ قَبْلَ أَنْ تُصِيبَهُ إِحْدَى الطَّلَقَاتِ وَهُوَ يَخْفِضُ رَأْسَهُ وَيَكَادُ يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ. كَانَ الْمَشْهُدُ حَوْلَهُ غَيْرَ وَاضِحٍ.

شَعَرَ هنري وَهُوَ يَجْرِي بِشَغَفٍ وَوَلَعَ حَزِينٍ بِالرَّايَةِ الْقَرِيبَةِ مِنْهُ. لَقَدْ فَكَّرَ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَنَّهَا جَمِيلَةٌ وَقَوِيَّةٌ. قَطَعَا لَنْ يُصِيبَهَا أَيُّ أَدَى. وَظَلَّ هنري عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ الرَّايَةِ وَكَأَنَّهَا قَادِرَةٌ عَلَى حِمَايَتِهِ.

وَوَسَطَ النَّدَافِعِ الْمُحْمُومِ، رَأَى هنري الْجُنْدِيَّ الَّذِي يَحْمِلُ الرَّايَةَ يَتَرَجَّعُ فَجَاءَتْ وَيَسْقُطُ عَلَى الْأَرْضِ.

عَلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ مِنَ الْحَقْلِ

قَفَزَ هَنْرِي وَأَمْسَكَ بِالسَّارِيَةِ. وَفِي نَفْسِ اللَّحْظَةِ أَمْسَكَ وَيَلْسُونَ بِالرَّايَةِ مِنَ الْجَانِبِ
الْآخِرِ.

الفصل الثالث والعشرون

الرَّايَةُ

عِنْدَمَا التَفَتَ هنري وويلسون وهما يُمَسِّكَانِ الرَّايَةَ معًا، وَجَدَا أَنَّ مُعْظَمَ أَفْرَادِ الْكُتَيْبَةِ قَدْ لَقُوا حَنْفَهُمْ. لَيْسَ هَذَا فَحَسْبُ، بَلْ كَانَ النَّاجُونَ يَبْدُءُونَ فِي الْإِنْسِحَابِ أَيْضًا. كَانَ الْعَدِيدُ مِنَ الضُّبَّاطِ يُعْطُونَ الْأَوَامِرَ، وَيَصِيحُونَ وَسْطَ ضَجِيجِ الْمُعْرَكَةِ.

صَاحَ الْمَلَاذِمُ: «مَاذَا تَفْعَلَانِ؟»

كَانَ هنري وويلسون يَتَشَاكِرَانِ عَلَى الرَّايَةِ، وَكِلَاهُمَا يُرِيدُ حَمْلَهَا. وَأَخِيرًا دَفَعَ هنري وويلسون بَعِيدًا.

عَادَتِ الْكُتَيْبَةُ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى الْأَشْجَارِ، وَعِنْدَمَا وَصَلُوا إِلَى الْمَكَانِ الْمَفْتُوحِ الَّذِي بَدَءُوا مِنْهُ بَدَأَ أَنَّ مَجْمُوعَاتٍ مِنْ جُنُودِ الْعَدُوِّ تُحِيطُ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَتَمَلَّكَ الذُّهُولُ وَالْيَأْسُ الْكَثِيرَيْنِ.

وَاصَلَ هنري التَّقَدُّمَ تَعْلُوَ وَجْهِهِ نَظْرَةً غَاضِبَةً. كَانَ غَاضِبًا لِأَنَّ الضَّابِطَ قَالَ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَاكِبُوا بَغَالٍ، وَكَانَ أَكْثَرَ غَضَبًا لِأَنَّهُمْ اضْطُرُّوا لِلْإِنْسِحَابِ. شَعَرَ بِالْكَرَاهِيَةِ تَجَاهَ الضَّابِطِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ — حَتَّى — يَعْرِفُهُ، لَكِنَّهُ نَعَتَهُ بِذَلِكَ. أَرَادَ هنري أَنْ تَنْتَصِرَ كُتَيْبَتُهُ فِي تِلْكَ الْمَوْقِعَةِ لِيَعُودَ إِلَى ذَلِكَ الضَّابِطِ وَيَقُولَ لَهُ: «نَحْنُ رَاكِبُونَ بَغَالٍ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟» لَكِنَّهُ الْآنَ يُدْرِكُ أَنَّ النَّصْرَ لَنْ يَكُونَ حَلِيفَهُمْ، وَأَنَّ عَلَيْهِ التَّخَلِّيَ عَنْ أَحْلَامِهِ بِالثَّارِ مِنَ الضَّابِطِ.

انْتَبَهَ هنري إِلَى كِبَرِيَّائِهِ وَظَلَّ يَرْفَعُ الرَّايَةَ عَالِيًا. صَرَخَ هُوَ وَالْمَلَاذِمُ فِي الْجُنُودِ لِيُوَاصِلُوا الْقِتَالَ، لَكِنَّ الْجُنُودَ كَانُوا أَشْبَهَ بِآلَاتٍ مُعْطَلَةٍ. عَجَزَ الْكَثِيرُونَ مِنْهُمْ عَنْ مُوَاصَلَةِ الْقِتَالِ بَعْدَ أَنْ رَأَوْا زُمَلَاءَهُمْ يَسْقُطُونَ قَتْلَى وَجَرَحَى.

انْتَشَرَ الدُّخَانُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَمَعَ حُدُوثِ انْقِسَامِ مُفَاجِئٍ فِي إِحْدَى السُّحُبِ، رَأَى هنري مَجْمُوعَةً مِنْ جُنُودِ الْعَدُوِّ. كَانُوا يَصِيحُونَ وَيُقَاتِلُونَ بَيْنَمَا كَتِيبَةُ هنري تَنْقَهَقُرُ. بَدَتْ الْمَعْرَكَةُ وَكَأَنَّهَا سَتَسْتَمِرُّ إِلَى الْأَبَدِ. فَقَدْ الْكَثِيرُ مِنَ الْجُنُودِ صَوَّابَهُمْ مِنْ هَوْلِ الْمَوْقِفِ، وَأَصْبَحُوا لَا يُمَيِّزُونَ مَكَانَ الْعَدُوِّ أَوْ مَصَدَرَ الطَّلَاقَاتِ. كَانُوا يَفْرُونَ فِي جَمِيعِ الاتِّجَاهَاتِ بَحْثًا عَنْ مَكَانٍ لِلْهَرَبِ، وَأَتْنَاءَ هَذَا كُلِّهِ يَتَسَاقَطُ الْقَتْلَى مِنْ حَوْلِهِمْ. سَارَ هنري بِخَطًى وَاثِقَةٍ وَسَطَ الْجُنُودِ، وَرَفَعَ الرَّايَةَ عَالِيًا. بَدَا وَكَأَنَّهُ تَوَقَّعَ أَنْ يَدْفَعَهُ أَحَدٌ أَرْضًا، فَكَانَ يَسْتَخْدِمُ الرَّايَةَ لِتُسَاعِدَهُ عَلَى الصُّمُودِ. وَمِنْ دُونِ أَنْ يَنْتَبِهَ، كَانَ وَقِيفًا كَالْأَبْطَالِ الَّذِينَ رَأَاهُمْ وَتَخَيَّلَهُمْ.

اقْتَرَبَ مِنْهُ وَيَلْسُونُ وَقَالَ: «أَعْتَقِدُ أَنَّهَا النَّهَايَةُ يَا هنري.»
رَدَّ هنري دُونَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى صَدِيقِهِ: «اصْمُتْ أَيُّهَا الْأَحْمَقُ!»

حَاوَلَ الضُّبَّاطُ تَوَزِيعَ الْجُنُودِ فِي دَائِرَةٍ حَتَّى يَسْتَطِيعُوا مُوَاجَهَةَ الْعَدُوِّ الَّذِي يَقْتَرِبُ. كَانَتْ الْأَرْضُ غَيْرَ مُسْتَوِيَةٍ وَمُشَقَّقَةٍ. وَتَسَلَّلَ الْجُنُودُ دَاخِلَ الْخَنَاقِ مُحَاوِلِينَ الْإِخْتِبَاءَ خَلْفَ أَيِّ شَيْءٍ قَدْ يَصُدُّ عَنْهُمْ الطَّلَاقَاتِ.

رَأَى هنري أَنَّ الْمَلَاذِمَ كَانَ وَإِقْفَا الْأَنِّ فِي سُكُونٍ مُتَكَئًا عَلَى سَيْفِهِ. وَسَادَ شُعُورٌ غَرِيبٌ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ الْقَصِيرَةِ. بَدَا الْمَلَاذِمُ كَالطِّفْلِ الَّذِي اسْتَنْزَفَ دُمُوعَهُ وَلَمْ يَعُدْ يَعْرِفُ مَاذَا يَفْعَلُ. كَانَ يُفَكِّرُ وَيُعْمَعِمُ لِنَفْسِهِ بِكَلَامٍ غَيْرِ مَفْهُومٍ.

تَصَاعَدَتْ بَعْضُ الْأَذْيَانَةِ حَوْلَ الْكَتِيبَةِ، بَيْنَمَا انتَظَرَ الْجُنُودُ الْمُخْتَبِئُونَ مِنَ الطَّلَاقَاتِ ارْتِفَاعَ الدُّخَانِ لِيَرَوْا لَأْخِرَ مَرَّةٍ مَاذَا سَيَحْدُثُ لَهُمْ.

الفصل الرابع والعشرون

انتصار مؤقت

فَجَاءَ قَطَعَ صَمْتُ الْجُنُودِ صَوْتُ الْمَلَاذِمِ الْمُتَنَفِّلِ عِنْدَمَا قَالَ: «هَا هُمْ قَادِمُونَ!» وَتَاهَتْ كَلِمَاتُهُ الْأُخْرَى وَسُطَّ ضَجِيجُ الطَّلَاقَاتِ.

نَظَرَ هنري إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ الْمَلَاذِمُ، وَرَأَى جُنُودَ الْعَدُوِّ يَقْتَرِبُونَ. كَانُوا قَرِيبِينَ جِدًّا، حَتَّى إِنَّهُ رَأَى وُجُوهَهُمْ وَزِيَّهُمُ الرَّمَادِيِّ الَّذِي بَدَأَ جَدِيدًا. كَانَتْ قُوَاتُ الْعَدُوِّ تَتَقَدَّمُ بِحَذَرٍ وَبِنَادِقَهُمْ مُسْتَعِدَّةً لِإِطْلَاقِ النَّيْرَانِ. وَعِنْدَمَا صَاحَ الْمَلَاذِمُ، وَبَدَأَتْ كَتِيبَةُ هنري فِي إِطْلَاقِ النَّيْرَانِ، بَدَأَ وَكَأَنَّ جُنُودَ الْعَدُوِّ بُوغِتُوا وَأُخِذُوا عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ.

تَبَادَلَ الْجَيْشَانِ الضَّرَبَاتِ، وَاسْتَمَرَ الْقَصْفُ الْغَاضِبُ وَالسَّرِيعُ مِنَ الْجَانِبَيْنِ. كَانَ الْجُنُودُ فِي كَتِيبَةِ هنري — بِزِيَّهُمُ الْأَزْرَقِ — مُتَلَهِّفِينَ لِلثَّأْرِ. تَوَارَى هنري بَعْضَ الْوَقْتِ. لَمْ يَكُنْ يَسْتَطِيعُ رُؤْيَةَ الْعَدُوِّ بوضوحٍ، لَكِنْ بَدَأَ أَنَّ هُنَاكَ الْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ يَتَقَدَّمُونَ إِلَى الْأَمَامِ شَيْئًا فَشَيْئًا. جَلَسَ عَلَى الْأَرْضِ حَزِينًا وَالرَّايَةَ بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ.

وعِنْدَمَا لَاحَظَ هنري الْعُصْبَ الشَّدِيدَ الَّذِي يَجْتَاحُ أَصْدِقَاءَهُ، أَدْرَكَ أَنَّهُ إِذَا انْتَصَرَ الْعَدُوُّ حَقًّا، فَسَيَكُونُ ذَلِكَ نَصْرًا عَسِيرًا وَمُؤْلِمًا.

لَكِنْ بَدَأَتْ ضَرَبَاتُ الْعَدُوِّ تَضَعُفُ، وَتَضَاعَلْ عِدَدُ الطَّلَاقَاتِ الْقَادِمَةِ مِنْ جِهَتِهِمْ. وَأَخِيرًا عِنْدَمَا تَوَقَّفَ الرِّجَالُ قَلِيلًا لِإِلْقَاءِ نَظَرَةٍ، لَمْ يَرَوْا سِوَى الدُّخَانِ الدَّاكِنِ يَمْلَأُ الْمَكَانَ. وَقَفَ الْجُنُودُ، وَحَدَّقُوا فِي الْخَلَاءِ حَوْلَهُمْ، فَرَأَوْا الْأَرْضَ خَالِيَةً مِنْ جُنُودِ الْعَدُوِّ عَدَا جُثَّتِ الْقَتْلَى.

عِنْدَ رُؤْيَا هَذَا الْمَشْهَدِ، انْطَلَقَ الْكَثِيرُ مِنَ الْجُنُودِ مِنْ مَخَابِيْهِمْ، وَرَقَصُوا رَقْصَةً فَرَحٍ غَرِيْبَةٍ. اتَّقَدَّتْ عُيُوْنُهُمْ، وَانْطَلَقَ هَتَافُ أَجْشٍ مِنْ بَيْنِ شِفَاهِهِمْ الْجَافَةِ.
كَانُوا قَدْ أَوْشَكُوا أَنْ يُصَدِّقُوا أَنََّّهُمْ بِلاَ جَدْوَى، وَأَنََّّهُمْ لَنْ يَصُمُدُوا أَمَامَ الْعَدُوِّ، لَكِنَّهُمْ عِنْدَمَا كَانُوا عَلَى وَشِكِ خَسَارَةِ هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ الصَّغِيرَةِ، أَذْرَكُوا أَنَّ حَجْمَ الْجَيْشِ لَيْسَ مُهِمًّا. لَقَدْ تَأَرَّوْا لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَدُوِّ وَانْتَصَرُوا عَلَيْهِ.
نَظَرَ الْجُنُودُ حَوْلَهُمْ فِي تَفَاخُرٍ، وَشَعَرُوا بِالثِّقَةِ فِي أَسْلِحَتِهِمُ الْبَسِيطَةِ. لَقَدْ كَانُوا رِجَالًا بِحَقٍّ.

الفصل الخامس والعشرون

رَأَى الْجُنَرَالِ

كَانَتْ الْأَرْضُ الْخَلَاءُ تُحِيطُ بِالْجُنُودِ، وَمِنْ بَعِيدٍ تَعَالَتْ الْعَدِيدُ مِنَ الْأَصْوَاتِ، لَكِنْ عَمَّ
الْهُدُوءُ ذَلِكَ الْجُزْءَ مِنَ الْحَقْلِ. شَعَرُوا بِالْحُرِّيَّةِ، وَتَنَهَّدُوا تَنْهِيدَ ارْتِيَاكِحٍ، وَتَجَمَّعُوا لِلْعُودَةِ
إِلَى صَفُوفِهِمْ حَيْثُ يَحِيْمُ بَقِيَّةُ الْجَيْشِ.

فِي هَذَا الْجُزْءِ الْأَخِيرِ مِنْ رِحْلَتِهِمْ، بَدَأَتْ تَبْدُو عَلَى الرِّجَالِ انْفِعَالَاتٌ غَرِيبَةٌ؛ كَانُوا
يَسِيرُونَ فِي عَجَلَةٍ وَقَلَقٍ، وَبَعْضُ الْجُنُودِ الَّذِينَ لَمْ يُظْهِرُوا شُعُورًا مُحَدَّدًا فِي خِصْمِ الْقِتَالِ
لَمْ يَسْتَطِيعُوا الْآنَ إِخْفَاءَ شُعُورِهِمْ بِالْقَلَقِ. رُبَّمَا كَانُوا يَخْشَوْنَ إِطْلَاقَ الذِّبْرَانِ عَلَيْهِمْ الْآنَ
بَعْدَ أَنْ انْتَهَتْ الْمَعْرَكَةُ الرَّئِيسِيَّةُ وَأَصْبَحُوا قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى مِنَ الْأَمَانِ.

حِينَ اقْتَرَبَ هِنري وَأَصْدِقَاؤُهُ مِنْ صَفُوفِ الْجَيْشِ، سَخِرَ مِنْهُمْ بَعْضُ الْجُنُودِ فِي
كُتَيْبَةٍ أُخْرَى أَثْنَاءَ مُرُورِهِمْ بِهِمْ.

صَاحَ أَحَدُهُمْ: «أَيْنَ كُنْتُمْ؟»

وَقَالَ آخَرُ: «لِمَاذَا لَمْ تَمَكِّنُوا هُنَاكَ؟»

وَقَالَ ثَالِثٌ: «تَعُودُونَ لِلْبَيْتِ الْآنَ أَيُّهَا الصَّغَارُ؟»

لَمْ يَرُدَّ أَحَدٌ عَلَيْهِمْ بِاسْتِثْنَاءِ جُنْدِيٍّ وَاحِدٍ تَحَدَّاهُمْ لِلشَّجَارِ بِالْأَيْدِي، لَكِنَّ الْمَلَايِمَ حَالِ
دُونَ ذَلِكَ. غَضِبَ هِنري مِنْ تِلْكَ التَّعْلِيقَاتِ، وَرَأَى أَنَّ كَثِيرِينَ فِي كُتَيْبَتِهِ كَانُوا يَسِيرُونَ فِي
تَتَاقُلٍ مُفَاجِئٍ وَكَأَنَّهُمْ يَشْعُرُونَ بِالذَّنْبِ.

حِينَ وَصَلَ الْجُنُودُ إِلَى مَوْقِعِهِمُ الْقَدِيمِ، اسْتَدَارُوا وَالْقَوَا نَظَرَةً عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي دَارَ
فِيهَا الْقِتَالُ. شَعَرَ هِنري بِالدَّهْشَةِ؛ فَالْمَسَاحَةُ كَانَتْ صَغِيرَةً لِلْغَايَةِ. تَعَجَّبَ هِنري مِنْ

وَقُوعِ كُلِّ تِلْكَ الْأَحْدَاثِ عَلَى مَسَاحَةِ صَغِيرَةٍ كَهَذِهِ، وَبَدَأَ يَشْعُرُ بِالْفَخْرِ عَنْ أَدَائِهِ فِي تِلْكَ الْمَعْرَكَةِ الْأَخِيرَةِ.

أَثْنَاءَ اسْتِرَاحَةِ الْجُنُودِ، جَاءَ الضَّابِطُ الَّذِي كَانَ قَدْ أَطْلَقَ عَلَيْهِمُ رَاكِبِي الْبِغَالِ عَلَى جَوَادِهِ. كَانَ قَدْ فَقَدَ قُبْعَهُ، وَتَفَرَّقَ شَعْرُهُ فِي غَيْرِ نِظَامٍ. كَانَ وَجْهُهُ مُتَجَهِّمًا مِنْ شِدَّةِ الْغَضَبِ، وَبَدَأَ عَلَى الْفَوْرِ يَصِيحُ فِي الْجُنُودِ.

صَرَخَ فِيهِمْ: «مَا هَذَا الَّذِي فَعَلْتُمُوهُ؟ تَوَقَّفْتُمْ وَأَنْتُمْ عَلَى بُعْدِ مِائَةِ قَدَمٍ مِنْ تَحْقِيقِ انْتِصَارٍ سَاحِقٍ. لَوْ كُنْتُمْ قَدْ تَقَدَّمْتُمْ مِائَةَ قَدَمٍ فَقَطْ، لَكَانَ هُجُومُكُمْ سَاحِقًا.»

النَّفَتُ الْجُنُودُ إِلَى قَائِدِهِمُ الَّذِي كَانَ عَلَى وَشِكِ الرِّدِّ. بَدَأَ وَكَانَ الضَّابِطُ أَهَانَهُ، لَكِنْ تَغَيَّرَ أَسْلُوبُهُ عَلَى الْفَوْرِ، وَهَزَّ كَتِفَيْهِ.

قَالَ بِنَبَرَةٍ هَادِئَةٍ: «لَقَدْ فَعَلْنَا مَا فِي وُسْعِنَا يَا جِنْرَالُ.»

صَاحَ الضَّابِطُ: «مَا فِي وُسْعِكُمْ؟ لَمْ يَكُنْ هَذَا كَافِيًا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ كَانَ يُفْتَرَضُ بِكُمْ أَنْ تَلْفِتُوا انْتِبَاهَ الْعَدُوِّ، لَكِنَّكُمْ أَخَفَقْتُمْ تَمَامًا.»

ثُمَّ اسْتَدَارَ بِجَوَادِهِ، وَأَنْطَلَقَ بَعِيدًا. غَمَغَمَ قَائِدُ الْكَتِيبَةِ بِكَلِمَاتٍ غَاضِبَةٍ. وَرَفَعَ الْمَلَاذِمُ — الَّذِي كَانَ يَسْتَمِعُ لِحَدِيثِ الْجِنْرَالِ فِي غَضَبٍ شَدِيدٍ — صَوْتَهُ، وَقَالَ: «أَيَّا كَانَتْ صِفَةُ الرَّجُلِ ... سَوَاءٌ أَكَانَ جِنْرَالًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؛ لَوْ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْفَتَيَانَ لَمْ يُبْلُوا بِلَاءً حَسَنًا، فَهُوَ أَحْمَقُ.»

الجنرالات

انْتَشَرَتِ الْأَنْبَاءُ بَيْنَ الْجُنُودِ بِأَنَّ أَفْرَادَ الْكُتَيْبَةِ نَعْتُوا بِالْفَسْلِ. أَكَّدَتْ كُلُّ الْكُتَائِبِ الْأُخْرَى أَنَّ الْجِنْرَالَ قَدْ ارْتَكَبَ خَطَأً فَادِحًا. لَاحَظَ هُنْرِي أَنَّ أَصْدِقَاءَهُ بَدَوْا كَالْحَيَوَانَاتِ الْمُنْهَزِمَةِ. نَظَرَ وَيْلَسُونُ إِلَيْهِ، وَقَالَ: «أَتَسْأَلُ مَاذَا يُرِيدُ مِنَّا. لَا بَدَّ أَنَّهُ يَظُنُّ أَنَّنا ذَهَبْنَا هُنَاكَ نَلْعَبُ!» وَمَعَ أَنَّ هُنْرِي كَانَ غَاضِبًا، فَإِنَّهُ قَرَّرَ أَنْ يُحَافِظَ عَلَى هُدُوءِهِ.

قَالَ: «عَلَى الْأَرْجَحِ لَمْ يَرِ الْجِنْرَالُ شَيْئًا مِنَ الْمَعْرَكَةِ. الْأَرْجَحُ أَنَّهُ شَعَرَ بِالْغَضَبِ، وَقَرَّرَ أَنَّنا كُنَّا قَطِيعًا مِنَ الْغَنَمِ لِأَنَّنا لَمْ نَفْعَلْ مَا أَرَادَهُ تَحْدِيدًا. إِنَّهُ سُوءُ حَظٍّ لَا أَكْثَرَ!»

رَدَّ صَدِيقُهُ وَقَدْ بَدَأَ أَنَّهُ يَشْعُرُ بِإِهَانَةٍ بِالْعَةِ: «عَلَيَّ الْإِقْرَارُ بِذَلِكَ؛ لَا جَدْوَى مِنْ أَنْ تُحَارِبَ مِنْ أَجْلِ الْآخَرِينَ عِنْدَمَا يَكُونُ كُلُّ مَا تَفْعَلُهُ خَاطِئًا. أَكَادُ أَتَمَنَّى إِلَّا أَشَارَكَ فِي الْقِتَالِ الْمَرَّةَ الْقَادِمَةَ. دَعُهُمْ يَتَحَمَّلُوا الْمَسْئُولِيَّةَ وَيُقَابِلُوا الْعَدُوَّ وَحْدَهُمْ.»

عِنْدَهَا جَاءَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْجُنُودِ مُسْرِعِينَ.

صَاحَ أَحَدُهُمْ: «عَلَيْكَ أَنْ تَسْمَعَ هَذَا يَا فُلَيْمِنْج!»

سَأَلَ هُنْرِي: «أَسْمَعُ مَاذَا؟»

رَدَّ الْجُنْدِيُّ: «التَقَى قَائِدُ الْكُتَيْبَةِ بِمُلَازِمِكَ فِي مَكَانٍ قَرِيبٍ مِنَّا، وَقَالَ: «مَنْ ذَلِكَ الْجُنْدِيُّ الَّذِي كَانَ يَحْمِلُ الرَّايَةَ؟» فَأَجَابَهُ الْمُلَازِمُ: «إِنَّهُ هُنْرِي فُلَيْمِنْج. إِنَّهُ فَتَى قَوِيٌّ»، هَكَذَا قَالَ بِالْحَرْفِ. ثُمَّ قَالَ الْقَائِدُ: «إِنَّهُ حَقًّا كَذَلِكَ. إِنَّهُ مُحَارِبٌ جَيِّدٌ. لَقَدْ ظَلَّ رَافِعًا الرَّايَةَ عَالِيًا عِنْدَ الْجَبْهَةِ. لَقَدْ رَأَيْتُهُ بِنَفْسِي. إِنَّهُ جُنْدِيٌّ شَجَاعٌ.» ثُمَّ قَالَ الْمُلَازِمُ: «مَعَكَ حَقٌّ. هُوَ وَصَدِيقُهُ وَيْلَسُونُ كَانَا فِي الْمَقْدَمَةِ طِيلَةَ الْوَقْتِ.» ثُمَّ قَالَ الْقَائِدُ: «كِلَاهُمَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ جِنْرَالًا فِي الْجَيْشِ.»»

تَوَرَّدَ وَجْهًا هَنَرِي وَوِيلَسُون خَجَلًا لِسَمَاعِ تِلْكَ الْأَخْبَارِ، وَسُرْعَانَ مَا نَسِيََا الْكَثِيرَ
مِنَ الْأُمُورِ. لَمْ يَعُودَا يَشْعُرَانِ بِالْإِحْبَاطِ، بَلْ كَانَا سَعِيدَيْنِ لِلْغَايَةِ. اِمْتَلَأَ قُلُوبَاهُمَا بِمَشَاعِرِ
الْإِمْتِنَانِ وَالْعِرْفَانِ لِلْقَائِدِ وَالْمُلَازِمِ.

الفصل السابع والعشرون

الهجوم الثاني

حِينَ بَدَأَتْ قُوَّاتُ الْعَدُوِّ هُجُومَهَا الثَّانِي مِنْ وَسْطِ الْعَابَةِ، كَانَ هِنري أَكْثَرَ ثِقَةً بِنَفْسِهِ. كَانَ يَقِفُ شَامِخًا رَابِطَ الْجَاشِ بَيْنَمَا يَتَوَارَى الْآخَرُونَ. رَاقَبَ هِنري الْهُجُومَ الَّذِي بَدَأَ بِمُوجَهَةِ فَرِيقٍ مِنْ جَيْشِهِ كَانَ عَلَى جَانِبِ تَلٍّ قَرِيبٍ. وَفِي مَكَانٍ آخَرَ فِي الْحَقْلِ كَانَ هُنَاكَ قِتَالٌ عَنِيفٌ وَسَرِيعٌ بَيْنَ كَتِيبَتَيْنِ بَدَتَا وَكَانَهُمَا تَتَجَاهَلَانِ الْمَعَارِكَ الْآخَرَى الَّتِي تَدُورُ حَوْلَهُمَا.

وَفِي اتِّجَاهٍ آخَرَ رَأَى هِنري مَجْمُوعَةً هَائِلَةً مِنَ الْجُنُودِ تَقْتَحِمُ الْعَابَةَ بِخَيُْولِهَا. غَابَتْ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةُ عَنِ الْأَنْظَارِ، وَسُرْعَانَ مَا تَعَالَتْ أَصْوَاتُ الْقِتَالِ وَالْقُصْفِ. رَاقَبَ هِنري الْمَعَارِكَ الصَّغِيرَةَ الَّتِي اسْتَمَرَّتْ بَعْضُ الْوَقْتِ. تَقَاتَلَ الْجَيْشَانِ قِتَالًا ضَارِيًا، وَرَأَى هِنري الرَّايَتَيْنِ تُرْفِرَانِ وَسُطَّ الدُّخَانُ.

بَعْدَ قَلِيلٍ عَمَّ الْهُدُوءُ الْمَكَانَ مَرَّةً أُخْرَى. هُدُوءٌ جَعَلَ الْمَكَانَ أَشْبَهَ بِالْكُنَيْسَةِ. وَفَجْأَةً انْطَلَقَتِ الطَّلَقَاتُ النَّارِيَّةُ مِنْ نَاحِيَةِ مُنَحَدَرٍ قَرِيبٍ، وَبَدَأَ صَوْتُ إِطْلَاقِ النَّيْرَانِ دَاخِلَ الْعَابَةِ. زَادَتْ سُرْعَةُ إِطْلَاقِ النَّيْرَانِ لِلْغَايَةِ حَتَّى أَصْبَحَ صَوْتُهَا لَا يَتَصَوَّرُ. وَلَمْ يَسْتَطِعْ هِنري سَمَاعَ شَيْءٍ آخَرَ.

كَانَ الْجُنُودُ يَنْدَفِعُونَ هُنَا وَهُنَاكَ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَنْظُرُونَ فِيهِ. فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ كَانَ رِجَالُ أَحَدِ الْجَيْشَيْنِ يَصْرُخُونَ وَيُهْلَلُونَ، لَكِنْ بَعْدَ لَحْظَةٍ يَهْلَلُ جُنُودُ الْجَيْشِ الْآخَرَ بِالْمِثْلِ تَمَامًا. كَانَتِ الصَّرَخَاتُ وَالْهَتَافَاتُ تَمَلَأُ الْأَرْجَاءَ.

تَقَدَّمَتْ كَتِيبَةُ هِنري الصَّغِيرَةُ بِنَفْسِ الْحَمَاسِ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ عِنْدَمَا حَانَ وَقْتُهِمْ. أَطْلَقَ الرِّجَالُ صَرْخَةً غَضَبٍ وَأَلَمٍ عِنْدَمَا أَطْلَقَ الْعَدُوُّ النَّارَ عَلَيْهِمْ. كَانَ أَمَامَهُمْ حَاجِزٌ مِنْ

الدُّخَانِ لَمْ يَرَوْا مِنْ خِلَالِهِ إِلَّا وَمَضَاتِ الْأَعْيَرَةِ النَّارِيَّةِ الْحَمْرَاءَ وَالصَّفْرَاءَ. وَسُرْعَانَ مَا اكْتَسَوْا بِالْأَوْسَاحِ وَالسُّحَامِ.

اسْتَمَرَّ الْمَلَاذِمُ يَصْرُخُ فِي الْجُنُودِ لِيُوَاصِلُوا الْقِتَالَ، بَيْنَمَا ظَلَّ هنري يَحْمِلُ الرَّايَةَ. حَاوَلَ أَنْ يَرَى كُلَّ مَا يَسْتَطِيعُ. كَانَ أحيانًا يَنْتَفِضُ، وَأحيانًا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ، بَلْ إِنَّهُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ حَتَّى إِنْ كَانَ يَنْتَفِضُ أَمْ لَا. كَانَ مُنْشَغِلًا لِلْغَايَةِ بِمُرَاقَبَةِ الْمَعْرَكَةِ.

اقْتَرَبَ صَفٌّ كَبِيرٌ مِنْ صُفُوفِ الْعَدُوِّ مِنْ كَتِيبَةِ هنري؛ فَكَانَ يَسْهُلُ رُؤْيُهُمْ. كَانُوا طَوَالَ الْقَامَةِ نَحِيفِي الْأَجْسَامِ مُنْفَعِلِي الْوُجُوهِ يَتَحَرَّكُونَ بِخَطَى وَاسِعَةٍ. وَأَمَامَ هَذَا الْمَشْهَدِ، تَوَقَّفتْ كَتِيبَةُ هنري لَحْظَةً قَبْلَ أَنْ يَبْدَءُوا إِطْلَاقَ النَّيرانِ ثَانِيَةً قَبْلَ حَتَّى صُدُورِ الْأَوَامِرِ بِذَلِكَ. بَدَءُوا إِطْلَاقَ النَّيرانِ مَا إِنْ انْتَبَهُوا إِلَى الْخَطَرِ الْمُحْدِقِ بِهِمْ.

لَكِنْ أَسْرَعَتْ قُوَّاتُ الْعَدُوِّ بِالِاخْتِبَاءِ خَلْفَ أَحَدِ الْأَسْجِحَةِ، ثُمَّ بَدَءُوا إِطْلَاقَ النَّارِ مِنْ جَدِيدٍ عَلَى كَتِيبَةِ هنري الَّتِي هَيَّأتْ نَفْسَهَا لِمُوَاجَهَةِ ضَارِيَةٍ. لَمَعَتْ أَسْنَانُ بَيَضاءَ مِنْ بَيْنِ الْوُجُوهِ الْمُتَسَخِّةِ. وَكَثِيرًا مَا صَاحَ جُنُودُ الْعَدُوِّ وَحَاوَلُوا إِهَانَةَ الْكَتِيبَةِ، لَكِنَّهَا ظَلَّتْ صَامِتَةً. رُبَّمَا كَانُوا يَنْذَكَّرُونَ الْإِهَانَةَ الَّتِي وَجَّهَهَا الْجِنْرَالُ لَهُمْ وَالَّتِي جَعَلَتْهُمْ أَشَدَّ بَأْسًا. عَزَمَ هنري عَلَى أَلَّا يَتْرَكَ هَذَا الْمَكَانَ مَهْمَا حَدَثَ. كَانَ يُرِيدُ الثَّأْرَ مِنَ الضَّابِطِ الَّذِي نَعَتْهُمْ بِرَاكِبِي الْبَغَالِ وَبِالْفَاشِلِينَ. وَأَفْضَلُ انْتِقَامٍ فِي رَأْيِهِ أَنْ يَبْقَى فِي هَذَا الْمَكَانِ إِلَى أَنْ يَهْزِمَ الْعَدُوُّ. سَوْفَ يُثْبِتُ لِلْجَمِيعِ كَمْ هُوَ شَجَاعٌ.

أُصِيبَ أَفْرَادُ الْكَتِيبَةِ إِصَابَاتٍ بِالْغَةِ، وَسَقَطَ الْكَثِيرُونَ مِنْهُمْ. زَحَفَ بَعْضُ الْجَرَحَى بَعِيدًا عَنْ مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ، لَكِنْ بَقِيَ الْكَثِيرُونَ بِلاَ حَرَكَ.

بَحَثَ هنري عَنْ وِلسونَ، وَوَجَدَهُ لَا يَزَالُ يُحَارِبُ. وَلَمْ يُصَبِ الْمَلَاذِمُ هُوَ الْآخَرُ بِسُوءٍ. كَانَ يَصِيحُ فِي الْجُنُودِ، لَكِنْ الْوَضْعُ سَارَ مُخْتَلِفًا الْآنَ. كَانَ مُعَدِّلُ الطَّلَاقَاتِ يَتَخَذُ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَكَانَ صَوْتُ الْمَلَاذِمِ يَزْدَادُ وَهْنًا.

الْجَانِبُ الْآخَرُ مِنَ السُّورِ

أَتَى قَائِدُ الْكُتَيْبَةِ مُسْرِعًا مِنَ الْخَلْفِ يَتَّبِعُهُ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الضُّبَاطِ.
صَاحُوا: «لَا بُدَّ أَنْ نَهْجُمَ عَلَيْهِمْ! لَا بُدَّ أَنْ نَهْجُمَ عَلَيْهِمْ!»
عِنْدَمَا سَمِعَ هُنْرِي ذَلِكَ، بَدَأَ يَدْرُسُ الْمَسَافَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَدُوِّ. أَذْرَكَ أَنَّ عَلَى كُتَيْبَتِهِ
التَّحَرُّكَ إِلَى الْأَمَامِ إِذَا أَرَادُوا تَحْقِيقَ النَّصْرِ. سَوْفَ يَلْقَوْنَ حَتْفَهُمْ إِذَا بَقُوا فِي أَمَاكِنِهِمْ.
أَمْلَهُمُ الْوَحِيدُ أَنْ يَدْفَعُوا الْعَدُوَّ بَعِيدًا عَنِ السِّيَاحِ الَّذِي يَحْتَبِي وَرَاءَهُ.
ظَنَّ أَنَّ رِفَاقَهُ سَيَكُونُونَ مُنْهَكِينَ لِلْغَايَةِ لَا يَقْوُونَ عَلَى شَنْ الْهُجُومِ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ
مِنْ تَشْجِيعِهِمْ، لَكِنْ عِنْدَمَا التَفَتَ لِيَنْظُرَ إِلَيْهِمْ، أَدْهَشَهُ أَنَّهُ قَدْ ارْتَسَمَتْ عَلَى وُجُوهِهِمْ
جَمِيعًا تَعْبِيرَاتٌ أَكِيدَةُ وَسَرِيعَةٌ بِالْمُوَافَقَةِ. وَعِنْدَمَا صَدَرَ الْأَمْرُ، تَقَدَّمَ الْجُنُودُ إِلَى الْأَمَامِ
بِخُطَى مُتَحَمِّسَةٍ. كَانَتْ هُنَاكَ قُوَّةٌ جَدِيدَةٌ وَغَيْرُ مُتَوَقَّعَةٍ فِي حَرَكَتِهِمْ. كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ
مُرْهَقُونَ، وَأَنَّ طَاقَةَ هَذَا الْهُجُومِ تُشَبِّهُ الْقُوَّةَ الَّتِي تَظْهَرُ قَبْلَ النِّهَايَةِ مُبَاشَرَةً. رَكَضَ
الْجُنُودُ بِحِمَاسٍ جُنُونِيٍّ. كَانَ انْدِفَاعًا أَعْمَى فَوْقَ حَقْلٍ أَخْضَرَ، وَتَحْتَ السَّمَاءِ الزَّرْقَاءِ
فِي اتِّجَاهِ السِّيَاحِ الَّذِي يَظْهَرُ بِصُعُوبَةٍ وَسَطِ الدُّخَانِ. وَخَلْفَ السِّيَاحِ، كَانَ جُنُودُ الْعَدُوِّ
يُصَوِّبُونَ نَحْوَهُمْ مُبَاشَرَةً.
ظَلَّ هُنْرِي رَافِعًا الرَّايَةَ فِي الْمَقَدِّمَةِ يَلْوُحُ بِيَدِهِ الْخَالِيَةِ وَيَصِيحُ. كَانَ يُحَاوِلُ إِثَارَةَ
حِمَاسِ أَصْدِقَائِهِ، لَكِنْ بَدَأَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا فِي حَاجَةٍ لِذَلِكَ. كَانَ الرُّجَالُ يَتَفَجَّرُونَ حِمَاسًا.
شَعَرَ هُنْرِي هُوَ الْآخَرُ بِالْجُرْأَةِ، وَكَانَ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِتَقْدِيمِ التَّضَحِّيَاتِ مَهْمَا كَلَّفَتْهُ.
لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ وَقْتُ لِلتَّفَكُّيرِ، لَكِنَّهُ أَذْرَكَ أَنَّ طَلَقَاتِ الْعَدُوِّ هِيَ الْحَاجِزُ الْوَحِيدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
بُلُوغِ غَايَتِهِ.

الفصل التاسع والعشرون

انتِزاعُ الرّايةِ

اندفع هنري إلى الأمام بكلِّ ما لديه من قوّة. لم يستطع رؤية أيِّ شيءٍ سوى الدُّخانِ، لكنّه كان يعلمُ بوجودِ سياجٍ قديمٍ هناك. لا بدّ أنّه كان ملكاً لأحدِ المزارعينِ في السَّابقِ، لكنّه الآن أصبحَ في يدِ العدوِّ.

أثناءَ جريِ هنري، لمعتَ في ذهنه فكرةُ اللقاءِ الأخيرِ بينَ جيشه وجيشِ العدوِّ، وتوقعَ أن تكونَ مواجهةً شرسةً، وهو ما جعله يسرّعَ في العدوِّ عن أصدقائه الذين كانوا يهتفونَ في قوّةٍ وحماسٍ.

لكنَّ سرعانَ ما رأى هنري أنَّ عددًا كبيرًا من جنودِ العدوِّ لن يصمدوا للقتالِ. ومع انقشاعِ الدُّخانِ، رأى هنري جنودَ العدوِّ يلوذونَ بالفرارِ. كان بعضهم يلتفتونَ ليطلقوا النَّارَ على كتيبةِ هنري قبلَ أن يواصلوا فرارهم.

لكنَّ في بقعةٍ محدّدةٍ بينَ صفوفِ العدوِّ، كانت هناك مجموعةٌ متجهمةٌ وحازمةٌ لم تتحرّكَ من مكانها. كانوا ثابتينَ في أماكنهم خلفَ السياجِ تُرفرفُ فوقهم رايةٌ متموجةٌ جامحةٌ.

اقتربتَ كتيبةُ هنري أكثرَ فأكثرَ حتّى التقى الفريقانِ، وأصبحتَ صرخاتهما إهاناتٍ متبادلةً. كادتِ المسافةُ بينهما تختفي تمامًا.

ركّزَ هنري نظره على رايةِ العدوِّ التي كان يريدُها أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخر. انقضَّ عليها كالحِصانِ الجامحِ، وكانت رايته تتأرجحُ كلّما اقتربَ منها.

فَجَاءَتْ تَوَقَّفَتْ كَتِيبَةُ هَنرِي عَلَى مَسَافَةٍ قَرِيبَةٍ، وَأَطْلَقُوا وَابِلًا مِنَ الرِّصَاصِ تَفَرَّقَ عَلَى
إِثْرِهِ جُنُودُ الْعَدُوِّ، لَكِنَّهُمْ وَاصِلُوا الْقِتَالِ. أَطْلَقَتِ الْكَتِيبَةُ صَيْحَةً أُخْرَى ثُمَّ انْدَفَعُوا نَحْوَ
الْعَدُوِّ.

رَأَى هَنرِي بَعْضَ جُنُودِ الْعَدُوِّ يَقَاتِلُونَ حَتَّى النِّهَايَةِ وَأَحَدُهُمْ يَحْمِلُ الرَّايَةَ. كَانَ
قِتَالًا مَهُولًا. اكْتَسَى وَجْهُ حَامِلِ الرَّايَةِ بِالْغَضَبِ وَتَشَبَّثَ بِهَا حَتَّى وَهُوَ يَتَعَثَّرُ وَيَسْقُطُ
أَرْضًا. جَرَّاحُهُ جَعَلَتْ الْأَمْرَ يَبْدُو وَكَأَنَّ كَائِنَاتٍ غَيْرَ مَرْتِيَّةٍ تَتَشَبَّثُ بِقَدَمَيْهِ وَتُعِيقُ تَحْرُكَهُ.
بَدَأَ قَلِيلًا لِلْغَايَةِ عِنْدَمَا قَفَزَتْ كَتِيبَةُ هَنرِي فَوْقَ السِّيَاحِ.

عَبَّرَ وَيَلْسُون السِّيَاحِ، وَانْقَضَ عَلَى الرَّايَةِ كَنَمِرٌ يَنْقُضُ عَلَى فَرَسَيْتِهِ. انْتَرَعَ وَيَلْسُون
الرَّايَةَ وَلَوَحَ بِهَا وَهُوَ يُطْلِقُ صَيْحَةً انْفِعَالٍ بَيْنَمَا سَقَطَ حَامِلُ رَايَةِ الْعَدُوِّ أَرْضًا.
أَطْلَقَتْ كَتِيبَةُ هَنرِي عَاصِفَةً مِنَ الْهَتَافِ.

انْتَهَتْ مَعْرَكَةُ التَّلِّ الصَّغِيرِ! أُسِرَ أَرْبَعَةٌ مِنْ جُنُودِ الْعَدُوِّ، وَاسْتُجِيبُوا. أَحَدُهُمْ كَانَ
مُصَابًا فِي قَدَمِهِ، وَأَخَذَ يَكِيلُ الصَّرَخَاتِ وَاللَّعَنَاتِ لِهَنرِي وَأَصْدِقَائِهِ. الثَّانِي كَانَ صَغِيرًا
وَتَكَلَّمَ بِهَدْوٍ مَعَ أَصْدِقَاءِ هَنرِي عَنْ أَحْدَاثِ الْمَعْرَكَةِ، بَيْنَمَا جَلَسَ الثَّلَاثُ حَزِينًا لَا يَفْعَلُ
شَيْئًا سِوَى تَوْجِيهِ عِبَارَاتٍ غَاضِبَةٍ لِلرِّجَالِ. أَمَّا السَّجِينُ الرَّابِعُ فَكَانَ صَامِتًا طِيلَةَ الْوَقْتِ،
وَكَانَ يُشِيخُ بِنَظَرِهِ عَنِ الْآخَرِينَ. بَدَأَ أَنَّهُ يَشْعُرُ بِالْخِزْيِ الشَّدِيدِ.

بَعْدَ أَنْ احْتَفَلَ الْجُنُودُ طَوِيلًا، جَلَسُوا خَلْفَ السِّيَاحِ فِي الْجَانِبِ الْمُقَابِلِ لِلْجَانِبِ الَّذِي
كَانَ يَتَّخِذُهُ جُنُودُ الْعَدُوِّ مِنْ قَبْلُ.

كَانَتْ هُنَاكَ بَعْضُ الْأَعْشَابِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي اسْتَرَحَى فَوْقَهَا هَنرِي، وَتَقَدَّمَ نَحْوَهُ
وَيَلْسُون مُفْعَمًا بِالْبَهْجَةِ وَالْفَخْرِ وَفِي يَدِهِ رَايَةُ الْعَدُوِّ. اسْتَلْقَى وَيَلْسُون بِجَوَارِهِ، وَهَنَّا
أَحَدُهُمَا الْآخَرَ.

الفصل الثلاثون

بَدَايَةُ جَدِيدَةٍ

بَدَأَتِ الْأَصْوَاتُ الصَّاخِبَةُ مِنْ حَوْلِهِمْ فِي الْإِنْخِفَاضِ، وَأَصْبَحَتْ لَا تَسْمَعُ إِلَّا عَلَى فتراتٍ مُتَبَاعِدَةٍ. وَنَظَرَ هِنري وَوَيْلسون حَوْلَهُمَا فَجَاءَ بَعْدَ أَنْ أَثَارَ هَذَا الْهُدُوءَ قَلَقَهُمَا، فَلَا حَظًا بَعْضَ التَّغْيِيرَاتِ بَيْنَ الْكُتَائِبِ الَّتِي كَانَتْ تَسِيرُ هُنَا وَهُنَا.

وَقَفَ هِنري، وَقَالَ: «أَتَسْأَلُ: مَاذَا يَجْرِي هُنَا؟» بَدَأَ أَنَّهُ سَيَسْمَعُ ضَجِيجًا جَدِيدًا. وَضَعَ هِنري يَدَهُ الْمُتَسَخَّخَةَ عَلَى عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ إِلَى الْحَقْلِ.

وَقَفَ وَوَيْلسون هُوَ الْآخَرُ وَحَدَّقَ النَّظَرَ.

قَالَ: «أَنَا مُتَأَكِّدٌ أَنَّنَا سَنُغَادِرُ هَذَا الْمَكَانَ، وَنَعُودُ ثَانِيَةً إِلَى النَّهْرِ.»

انْتَظَرَا وَرَاقِبَا، وَبَعْدَ قَلِيلٍ تَلَقَّتِ الْكُتَيْبَةُ الْأَوَامِرَ بِالْعُودَةِ مِنْ حَيْثُ جَاءُوا. نَهَضَ الرَّجَالُ مِنْ عَلَى الْأَرْضِ وَبَسَطُوا أَيْدِيَهُمْ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ. سَبَّ أَحَدُ الْجُنُودِ وَهُوَ يَفْرُكُ عَيْنَيْهِ، وَتَذَمَّرَ الْجَمِيعُ. كَانَ اغْتِرَاضُهُمْ عَلَى تِلْكَ الْأَوَامِرِ كَاغْتِرَاضِهِمْ عَلَى الدُّخُولِ فِي مَعْرَكَةٍ جَدِيدَةٍ؛ إِذْ كَانُوا يَشْعُرُونَ بِالرَّاحَةِ فِي هَذَا الْمَكَانِ.

سَارَ الرَّجَالُ رُويْدًا رُويْدًا عَبْرَ الْحَقْلِ فِي طَرِيقِ الْعُودَةِ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا يَعْدُونَ فِيهِ بِجُنُونٍ قَبْلَ قَلِيلٍ.

اسْتَمَرَّتِ الْكُتَيْبَةُ فِي السَّيْرِ حَتَّى انْضَمَّتْ إِلَى بَقِيَّةِ الْجَيْشِ، وَأُعِيدَ تَشْكِيلُ الْكُتَائِبِ فِي صُفُوفٍ، وَوَأَصَلُوا مَسِيرَتَهُمْ فِي الْغَايَةِ. شَاهَدُوا فِي طَرِيقِهِمْ بَيْتًا أَبْيَضَ أَمَامَهُ مَجْمُوعَاتٌ مِنْهُمْ يُطْلِقُونَ النَّارَ عَلَى عَدُوٍّ بَعِيدٍ.

عِنْدَ هَذِهِ النُّقْطَةِ انْعَطَفَ الْجُنُودُ مِنْ طَرِيقِ الْحَقْلِ، وَتَحَرَّكُوا فِي اتِّجَاهِ النَّهْرِ. وَعِنْدَمَا انْتَبَهَ هِنري إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانُوا يَقْصِدُونَهُ، نَظَرَ خَلْفَهُ وَأَخَذَ نَفْسًا عَمِيقًا

مَمْرُوجًا بِالرُّضَى، ثُمَّ وَكَزَ صَدِيقُهُ وَيَلْسُون، وَقَالَ: «نَحْنُ نَغَادِرُ سَاحَةَ الْقِتَالِ! لَقَدْ انْتَهَتْ الْمَعْرَكَةُ!»

نَظَرَ وَيَلْسُون خَلْفَهُ هُوَ الْآخَرُ، وَقَالَ فِي دَهْشَةٍ: «نَعَمْ، لَقَدْ انْتَهَتْ!»
قَضَى هِنْرِي بَعْضَ الْوَقْتِ لِیَتَكَيَّفَ مَعَ هَذَا التَّغْيِيرِ. صَفَا ذِهْنُهُ تَدْرِيجًا، وَبَدَأَ یَسْتَوْعِبُ أَيْنَ كَانَ وَمَاذَا یَحْدُثُ. فَهَمَّ أَنَّ الْحَرْبَ قَدْ انْتَهَتْ، وَأَنَّهُ كَانَ فِي أَرْضٍ تَمْلُوهَا مَعَارِكُ غَرِيبَةٍ، وَأَنَّهُ قَدْ عَادَ. أَذْرَكَ أَنَّهُ كَانَ فِي مَكَانٍ مِلِيٍّ بِالدَّمَاءِ وَمَشْحُونٍ بِمَشَاعِرِ الْغَضَبِ، وَأَنَّهُ نَجَا. أَوَّلُ شَيْءٍ خَطَرَ فِي بَالِهِ هُوَ أَنْ یَحْتَفَلَ.

لَاحِقًا بَدَأَ هِنْرِي یَتَمَعَّنُ فِي تَصَرُّفَاتِهِ مِنَ الْإِحْفَاقَاتِ وَالْإِنْجَازَاتِ. شَعَرَ بِالسَّعَادَةِ، وَلَمْ یَنْدَمْ عَلَى شَيْءٍ. لَمْ یُشَاهِدْهُ الْآخَرُونَ إِلَّا فِي الْمَوَاقِفِ النَّبِيلَةِ. كَانَ سَعِيدًا بِتَذَكُّرِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، وَظَلَّ وَقْتًا طَوِيلًا یَسْتَرْجِعُهَا فِي خَيَالِهِ.

كَانَ یَرَى نَفْسَهُ جُنْدِيًّا كُفْتًا، وَتَذَكَّرَ فِي سَعَادَةٍ تَعْلِيقَاتِ رِفَاقِهِ عَنْ مَدَى شَجَاعَتِهِ. لَكِنْ عَاوَدَهُ شَبَحُ هُرُوبِهِ مِنَ الْمَعْرَكَةِ الْأُولَى. كَانَ سَاحِطًا إِلَى حَدٍّ مَا بِشَأْنِ مَا حَدَثَ. وَلِلْحَظَةِ انْتَابَهُ شُعُورُ بِالْحَجَلِ وَالْحَزَنِ.

ثُمَّ عَاوَدَتْهُ ذِكْرَى الْجُنْدِيِّ ذِي الثِّيَابِ الرَّثِيَّةِ الَّذِي فَرَّ مِنْهُ فِي الْحَقْلِ. وَلِلْحَظَةِ أَخَذَ یَتَصَبَّبُ عَرْقًا عِنْدَمَا فَكَّرَ أَنَّ الْآخَرِينَ قَدْ یَعْرِفُونَ مَا فَعَلَ، فَأَطْلَقَ صَرْخَةً أَلَمَ.

الْتَفَتَ إِلَيْهِ وَيَلْسُون، وَسَأَلَهُ: «مَاذَا بِكَ يَا هِنْرِي؟»

لَمْ یَسْتَطِعْ هِنْرِي الرَّدَّ عَلَى صَدِيقِهِ، وَغَمَغَمَ لِنَفْسِهِ بِكَلِمَاتٍ غَيْرٍ وَاضِحَةٍ.
وَأُتِنَاءَ سِرِّهِ، سَيَّطَرَتِ الطَّرِيقَةُ الَّتِي تَصَرَّفَ بِهَا عَلَى فِكْرِهِ، وَأَفْسَدَتْ عَلَيْهِ ذِكْرِيَّاتِهِ الْجَمِيلَةَ. وَمَهْمَا حَاوَلَ أَنْ یُلْهِيَ نَفْسَهُ بِالتَّفْكِيرِ فِي شَيْءٍ آخَرَ، لَاحَقَهُ مَشْهُدُ الْجُنْدِيِّ ذِي الثِّيَابِ الرَّثِيَّةِ الَّذِي تَرَكَهُ وَحِيدًا فِي الْحَقْلِ. نَظَرَ هِنْرِي إِلَى أَصْدِقَائِهِ وَتَيَقَّنَ أَنَّهُمْ إِذَا نَظَرُوا إِلَيْهِ فَسَيَرُونَ نَظْرَةَ الذَّنْبِ فِي وَجْهِهِ، لَكِنَّهُمْ كَانُوا یَبْتَغِدُونَ وَیَتَحَدَّثُونَ عَنِ النُّصْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي حَقَّقُوهُ فِي الْمَعْرَكَةِ الْآخِرَةِ.

لِفَتْرَةٍ، شَغَلَتْهُ هَذِهِ الذِّكْرَى عَنْ كُلِّ مَظَاهِيرِ الْإِحْتِفَالِ. لَقَدْ أَذْرَكَ خَطَأَهُ، وَخَافَ أَنْ یُرَافِقَهُ الشُّعُورُ بِالذَّنْبِ طِيلَةَ حَيَاتِهِ. تَجَنَّبَ الْحَدِيثَ مَعَ أَصْدِقَائِهِ وَتَفَادَى النَّظَرَ إِلَيْهِمْ.

لَكِنْ، شَيْئًا فَشَيْئًا اسْتَجَمَعَ هُنْرِي الْقُوَّةَ لِإِلْقَاءِ ذَلِكَ الْخَطَا وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَأَخِيرًا بَدَأَ أَنَّهُ يَفْكَرُ بِأُسْلُوبٍ مُخْتَلِفٍ. تَذَكَّرَ أُسْلُوبَهُ وَمُعْتَقَدَاتِهِ قَبْلَ الْمَعْرَكَةِ، وَاكْتَشَفَ أَنَّهُ كَرِهَ هَذَا الْأُسْلُوبَ.

وَمَعَ هَذَا الْاِكْتِشَافِ، اسْتَعَادَ ثِقَتَهُ بِنَفْسِهِ. لَقَدْ شَعَرَ أَنَّهُ أَصْبَحَ بِالْفِعْلِ رَجُلًا قَوِيًّا رَابِطُ الْجَاشِ. عَلِمَ أَنَّهُ لَنْ يَنْسَحِبَ مِنْ أَيِّ مَعَارِكٍ قَادِمَةٍ. كَانَ قَرِيبًا مِنَ الْمَوْتِ، وَاكْتَشَفَ فِي النِّهَايَةِ أَنَّهُ مَوْتُ فَحَسِبَ.

وَهَكَذَا تَغَيَّرَتْ رُوحُهُ أَثْنَاءَ عَوْدَتِهِ مِنْ سَاحَةِ الدَّمَاءِ وَالْغَضَبِ. لَمْ يَعُدْ غَاضِبًا أَوْ خَائِفًا.

أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ، وَوَاصَلَ الْجُنُودُ مَسِيرَتَهُمْ وَسَطَ الْأَرْضِ الْمُوْجِلَةِ. بَدَأَ عَلَيْهِمُ الْإِنْزِعَاجُ وَأَخَذُوا يُغْمِغِمُونَ بِكَلِمَاتٍ غَيْرِ مَفْهُومَةٍ، لَكِنْ هُنْرِي ابْتَسَمَ؛ لِأَنَّهُ رَأَى أَنَّ الْعَالَمَ فِي انْتِظَارِهِ. لَقَدْ تَحَرَّرَ مِنْ مَخَاوِفِ الْحُرُوبِ! لَقَدْ انْتَهَى الْكَابُوسُ! كَانَ مِثْلَ حَيَوَانٍ يَفْزَعُ أَشَدَّ الْفَزَعِ مِنْ أَهْوَالِ الْحُرُوبِ وَأَخْطَارِهَا. نَظَرَ هُنْرِي حَوْلَهُ إِلَى السَّمَاءِ الْجَمِيلَةِ، وَالْمَرَاعِي النَّاصِرَةِ، وَالْأَنْهَارِ الْبَارِدَةِ؛ حَيَاةً مِنَ السَّلَامِ الدَّائِمِ.

وَفَوْقَ النَّهْرِ، سَقَطَ شُعَاعُ شَمْسٍ ذَهَبِيٍّ مِنْ بَيْنِ السُّحُبِ الْمَطِيرَةِ.

